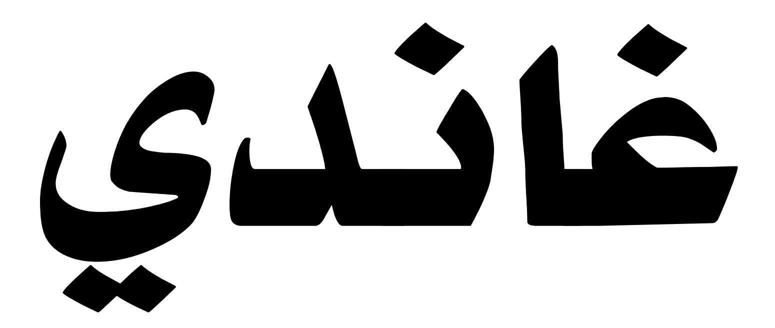
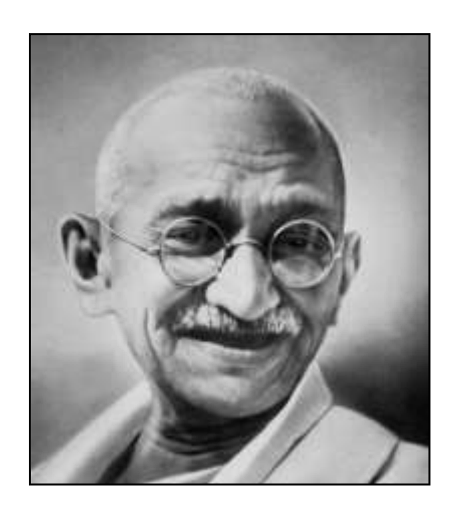




رسول السلام في القرن العشرين

محمد فتحي

جزيرة الورد للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : غاندي.. رسول السلام في القرن العشرين

المــــــــؤلف : محمد فتحي

رقم الإيـداع :

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى ٢٠١٠

الناشر : مكتبة جزيرة الورد

٤ ميدان حليم ــ خلف بنك فيصل الرئيسي ــ شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا . ت: ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤

محمول : ٠١٠٠١٠٤١١٥ ـ ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

مقدمة

يعد موهانداس كارامشاند غاندي[١] من قلائل نالوا من الشهرة العالمية أوسعها في هذا العصر.. وحيثما ذُكِرَ يكون الثناء مرافقاً لسيرته.. وعندما دعت الأمم المتحدة الدول الأعضاء بها إلى الاحتفال بالثاني من أكتوبر من كل عام يوماً عالمياً لمكافحة العنف في العالم.. كانت تخلد في ذاكرة التاريخ ذكرى مولد ذلك الزعيم باعتباره أهم وأشهر من حمل مصباح تلك الدعوة الإنسانية السامية في العصر الحديث.

وكان ذلك بمثابة تقدير وثناء مستحقان من المجتمع الدولي على دور غاندي التاريخي في تحرير بلاده[٢] وإخراجها من تحت نير الاستعمار البريطاني الذى كانت الهند جوهرةً في تاج المُلك به.. وظلت تئن من جراءه ثلاثة قرون متتالية.. تلك الدعوة التى صاغها غاندي باختصار في كلماتٍ قليلة قال فيها:

إن اللاعنف هو أعظم قوة متوفرة للبشرية.. إنها أقوى من أقوى سلاح دمار صنعته براعة الإنسان..

فما هو سر ذلك الرجل؟

وما هي حكاية دعوته الخاصة التى أسماها «اللا عنف»؟

الإجابة عن هذا السؤال أُلِفَ من أجلها مئات.. بل آلاف الكتب.. وكانت موضعاً للمئات من الرسائل العلمية في معظم جامعات العالم.

وهي ما نحاول بجهدنا المتواضع من خلال هذا الكتاب أن نميط اللثام عنها للقارئ العربي ما استطعنا إلى ذلك من سبيل.. مؤكدين على أن الرجل بالرغم من رحيله الذي مرت عليه سنوات وسنوات إلا أنه يحتل من ذاكرة التاريخ مساحة خاصة جداً.. لا يستطيع زعيم وطني آخر أن يزاحمه فيها.. فقد كانت زعامته لشعبه زعامة من نوعٍ خاص جداً.. فلأول مرة يتعامل التاريخ مع قائد بهذا الشكل.. ضعيف البنية.. ضئيل الجسم.. رأسَه صغير مستدير.. أصلع.. شاربه الخفيف يطلُّ من أسفل أنفه الكبير المدبَّب.. عيناه براقتان تشعان تحدياً وقوة روحية شديدة.. ينظر بهما للعالم أجمع من وراء نظَّارة بسيطة.. يلف جسده النحيل دائماً بلباس بلاده الوطنى المسمى (الدهوتي) وهو ثوب كان يستر بالكاد ركبتيه المعقودتين وفخذيه النحيلين.

---

(١) هذا هو اسمه الكامل Mohandas Gandhi..
(٢) وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد صوتت لصالح القرار الذي قدمته الهند ورعته ١٤٢ دولة بالإجماع.

كان يسـير وراءه شـعبه بكل طوائفه.. الذين عمل علي أن يكون دوماً قريباً منهم.. يسـاهم في حل مشكلاتهم.. ويعينهم على قضـاء حوائجهم.. وبذلك استطاع إقناع كل القوي الثورية والشعبية في بلاده بالانضـواء تحت لوائه.. وهو يحمل راية الاسـتقلال والحرية.. ويتقدم جموعهم حاملاً مشـعل الثورة.. الذي أضـاء شعلته بمفهومه الخاص.. حيث لا عنف.. ولا دماء.. وكانت كلما خبت نيران الشعلة ألهبها بوقود المقاطعة.. والاعتصام.. والعصيان المدني.. وغيرها من وسائل الضغط السلمي.. وعندما أوشك أن يُغتال أكثر من مرة في سـبيل قضـيته.. كان يحتضـن شـعلته أكثر.. وأكثر.. وينفخ فيها من روحه.. حتى تعود لتشتعل من جديد.. وحتى تمكن في النهاية من الحصول لبلاده علي الاستقلال.

وكانت كل مقوماته الزعامية.. والقيادية.. هي مقومات فلسـفية بحتة.. فقد آمن بمبدأ اللاعنف.. وجعله الإطار العام لثورته علي الاحتلال البريطاني لبلاده.. هذه هي صـورة غاندي المطبوعة دوماً في الأذهان.. وبالرغم من هذا لم يسلم الرجل ممن يهاجمه حياً.. وميتاً.. ولعل أغرب وصـف قالوه عن الرجل أنه كان مجرد دمية بريطانية اسـتخدمته الحكومة الإنجليزية في حينه لقمع الثورات المسـلحة ضد مصالحها في الهند.

لكن دعونا نترك الحقائق لتتحدث.. لنرى على أي مرفأ سـوف تقودنا .. خاصـةً مع شـدة احتياجنا حالياً ـــ خاصةً كوطن عربي ـــ إلى الشخص المخلص الذى يعيد إلينا رمز الزعامة.. فكلنا بحاجة إلى رمزية غاندي بعد أن فقدنا رمزية عبد الناصر.. وضجرنا من رمزية الجيل التالي من القادة المخنعين.. كلنا بحاجة إلى (الغاندية) من أجل بث الروح في جسد شعوبنا المحتضرة والمتداعية.

فالغاندية ليست نظام حكم أو إدارة.. بل هي نظام حياة وأسلوب تعايش للشعوب المهمشـة.. وهو ما حلمنا به كثيراً.. وللأسـف لم ندركه ونشـتاق لليوم الذى نفتح فيه النوافذ حتى يدخل النور ليزيل الظلام المنتشر في أجهزة الحكم العربية والمجتمعات المسحوقة على السواء.

وقد مرَ غاندي بمرحلتين مهمتين في حياته السياسية هما : مرحلة النضـال السلمي من أجل تحرير الوطن واسـتقلاله.. ثم مرحلة التعافي وبناء الوطن الديمقراطي الجديد.. وقد لجأ هذا الرجل العظيم في المرحلتين لأسلوب اللاعنف الشهير الذي وحد شعوباً وأمماً متباينة في عقائدها ولغاتها وألوانها مقسمة إلى كانتونات يحكمها وطنيون وغير وطنين بمباركة من بريطانيا العظمى.. وحدهم جميعاً تحت راية الهند الواحدة.. بعيداً عن التوترات الإيديولوجية والطائفية والطبقية المتأزمة.. وهو ما يبرز دور القائد الحقيقي والأبوي الذي جعل من السلم منهجاً لتحرير بلاده.

بقي أن نقول أننا نعلم مقدماً أن الكتابة عن غاندي في حد ذاتها قد تثير حفيظة البعض ممن يرون في الرجل أنه هندوســـي.. كافر.. من عبدة البقر.. ولكن نرد عليهم بأن المرء على دين أبيه.. ولو كان غاندى نشـأ في بيئة مسـلمة.. أو حتى مسـيحية.. أو يهودية لكان كذلك.. مصـداقاً لقول رسـول الله في حديثه الأشهر : «يولد الإنسان على الفطرة.. ثم ينصره أبواه.. أو يهودانه» إلى آخر الحديث الشريف.. ولنترك الدين لله.. وحســاب الرجل على معتقداته الدينية لرب كل الأديان الواحد عزّ.. وجل.. لكن ما يهمنا نحن وقد أفضى الرجل إلى ما قدم إليه.. ولم يبق منه إلا سيرته هو الحكمة التاريخية في تجربته.. وأدواته الخاصـــة في التعامل مع تلك التجربة.. لنخرج من بين ثناياها بالمأثور منها.. ولعل أبرز مفارقاتها أن الرجل استطاع أن يسير عكس التيار.. ويسترد بالسلم.. ما فقدته بلاده بالغصب.. ويحرر وطنه.. ويستقل به عن التبعية البريطانية.

محمد فتحي

فلاش باك الحكاية من النهاية

على طريقة الصـــدمات الكهربائية جاءت أحداث النهاية في حياة غاندي.. وكانت آخر كلماته وهو يتلقى بجسده الضئيل رصاصات الغدر (أي رام.. أي رام) ثم يسكت بعدها إلي الأبد.. ولم يكن رام هذا الذي كان اسـمه آخر ما جري علي شـفتي غاندي.. سـوي بطل من أبطال القصص الدينية تُقص سيرته كنموذج رفيع للتضحية وبذل النفس.

وعند رحيله في الثلاثين من يناير عام ١٩٤٨ كان قد بلغ من العمر التاسعة والسبعين[٣].. فهو من مواليد الثاني من أكتوبر عام ١٨٦٩.

وفي الخامس من فبراير ١٩٤٨ وفي الميدان الرئيســـي بالعاصـــمة الهندية الجديدة (نيودلهي) تجمع عشـــرات الآلاف لحضـــور مراســـم حرق جثمان زعيمهم غاندي طبقاً للطقوس الهندوسية.



الجميع يلقون نظرة الوداع على جثمان غاندي قبل حرقه بلحظات

كان الجثمان مسجي فوق مقصـورة صـغيرة لا ترتفع عن الأرض أكثر من مترٍ واحد.. ومصـنوعة من فروع الأشجار الخشبية يعلوها جثمان غاندي المخضب ببخور خاص.. ثم أمسك نهرو تلميذ

---

(٣) راجيف الروحي رئيس وزراء الهند من محاولة اغتيال قام بها غاندي) الطريف أنه في نفس اليوم .. وبعد رحيل غاندي بـحوالي٣٨ عاماً وتحديداً عام ١٩٨٦ نجى حفيده أحد الناشطين السيخ.

غاندي الأثير.. وأول من شغل منصب رئيس الوزراء بعد الاستقلال.. بالشعلة النارية.. وبدأ يشعل النيران في الجسد المسجى وسط صيحات الجماهير الغفيرة.

وبعدها بعدة أيام.. وتحديداً في الثاني عشر من فبراير.. اصطف الملايين من أبناء الشعب الهندي على طول الطريق لوداع زعيمهم.. وملهمهم التاريخي في رحلته الأخيرة.



الجميع ينتظرون لحظة حرق الجثمان

واستقل (نهرو) شاحنة فورد[٤] حاملاً معه جرة الرماد المتبقى من حرق الجثمان لينقله حيث سيقوم بذره في مياه نهر الكانج.. تحديداً في نقطة التقاءه مع نهر يامونا.



الدخان يتصاعد من الجثمان أثناء حرقه

(٤) حالياً السيارة معروضة في متحف في مدينة أباد الله.

غاندي سمادي

وكان قد تم الاتفاق على الاحتفاظ بجزء من الرماد ليوضع في قارورة خاصة.. توضع في ضريح أنشئ خصيصاً للزعيم الهندي.. وأطلق عليه(غاندي سمادي).. ويقع الضريح بمنطقة راجكات بالعاصمة نيودلهي.. ووضع أمام الضريح شعلة يصفها الهنود بأنها مقدسة لأنها أوقدت أول مرة من نيران جثمان غاندي.. وما زالت تحتفظ الشعلة بنارها حتى اليوم.. ويعلو وسط الضريح لوحة رخامية مكتوب عليها (الله هو الحقيقة).. ولا يزال الشعب الهندي يحتفل بذكري وفاته سنوياً يوم اغتياله.

الهنود غير مصدقين

كان حتى هذه اللحظة الشعب الهندي لا يصدق وفاة زعيمه الأشهر.. وملهمه الأول.. وقائده على طريق الحرية.. ذلك القائد الذى منحه شعبه لقبه الأشهر(المهاتما غاندي) وهو لقب خاص بالقومية الهندية يعني والد كل الشعب الهندي.. كما أطلقوا عليه أيضاً(صاحب النفس العظيمة) و(أبو الهند الحديثة).. في الثقافة العالمية أطلقوا عليه لقب (القديس).

وكانت هذه هي المحاولة السادسة لاغتيال غاندى.. فشلت قبلها خمسة محاولات.. بينما ترصد له الموت في السادسة.. كان الجميع يتساءلون عن السبب الذى دفع ذلك الشاب المجهول الذي كان يدعى (ناثورام فنياك جودس) وهو أحد الصحفيين العاملين بجريدة كانت تسمى (هندور اشترا) المتطرفة.. التي لم تكن تكف عن اتهام غاندي بخيانة قضية الهندوكيين بتسامحه مع المسلمين.. لقتل زعيمهم.. ومن يقف وراءه.

ولم يكن ذلك هو حال الشعب الهندي فقط.. بل كان حال الرأي العام العالمي أيضاً.. فقد حظي الرجل بما لم يحظ به زعيم وطنيٌ معاصر من الشهرة.. والتأييد داخلياً.. وخارجياً.. وباتت أحداث اليوم الأخير من حياة غاندي مادة أساسية لحديث الجميع داخل الهند.. وخارجها..

فكيف دارت أحداث اليوم الأخير من حياة الرجل؟

كانت آنذاك حدة التوتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير تتصاعد بشكلٍ كبير.. وكل يوم يسقط العديد من القتلى في الاشتباكات المسلحة التي تنشب بين الجانبين والتى وصلت ذروتها خلال عامي ١٩٤٧& ١٩٤٨ .

وكان غاندي قد بدأ قبل مقتله في الثالث عشـر من يناير ١٩٤٨ صـيامأ عن الطعام من أجل إحلال السـلام بين كافة شـعوب القارة الهندية من مسـلمين وهندوس وغيرهم.. بعد أن تألم كثيراً مما كان يحدث بينهم من مشـاحنات.. ومعارك دموية.. وكان يعتبر ذلك كارثة وطنية.. وأخذ يدعو إلى إعادة الوحدة الوطنية بين الهنود والمسلمين طالباً بشكل خاص من الأكثرية الهندوسية احترام حقوق الأقلية المسلمة.

ويوم انفجر تيار العنف بين الهندوس والمسلمين في «كلكتا».. وسالت الدماء.. أعلن صيامه.. حتى شارف على الموت.. فدخل عليه رجل مفجوع لوفاة ولده.. ومد يده إليه بقطعة خبز وهو يقول له:

ـ كُلْ حتى لا أكون سبباً في موتك.. هل تعلم يا سيدي ماذا فعلوا بابني؟ لقد قتلوه.. وأنا قتلت من قتل ابني؟.. فنظر إليه غاندي بشفقة وهو بالكاد يفتح عينيه من الإعياء وقال له:

ـــ هل أدلك على ما هو أفضل مما فعلت فيأخذ بك إلى الجنة؟.. أن تأخذ الولد الذي قتلت أباه فتربيه على الدين الذي كان أبوه يريد أن ينشـئه عليه.. اغرورقت عينا الرجل بالدموع.. وانكب على قدمي غاندي فقبلهما.

وفي الثامن عشر من يناير أعلن زعماء الأطراف المختلفة عزمهم على وقف القتال.. فأنهى غاندي صيامه.. بعد أن توقفت مظاهر العنف في كلكتا.. وهدأ الناس عن ذبح بعضهم بعضاً.

وقال غاندي لمن حوله:

– أعطوني كأساً من الليمون..

بعدها بقليل.. قرر غاندي أن يزور باكستان وهو يقول.. سوف أكشف عن الشيطان الموجود في قلوب الهندوس والمسـلمين معاً.. ولكن مناشـدة غاندي للأغلبية الهندوسـية باحترام حقوق الأقلية المسلمة.. لم ترق لبعض الفئات الهندوسية المتعصبة.. واعتبروها بمثابة خيانة عظمى فقرروا التخلص من غاندي.

اللحظات الأخيرة

« وفي الساعة الرابعة والنصف من مساء تلك الليلة أو بعد ذلك بدقائق قليلة.. كان غاندي في قصر (بيرلا) يتحدث مع السردار باتل نائب رئيس وزراء الهند.. ولكنه قطع حديثه ونظر إلي ساعته المدلاة من الشملة القطنية التي يلتحف بها.. وقال لمحدثه: دعني أذهب.. إنها ساعة الصلاة..

ثم قام ونهض معتمداً علي كتفي حفيدتي أخته[٥]..وسار إلي المنصة التي اختارها ليشرف منها علي جموع المصــلين الذين تعودوا أن يشــاركوه صــلاته ثم صــعد في بطء الدرجات الثلاث المؤدية إلي المنصــة.. لحظتها تقدم منه شـاب قصـير ممتليء يرتدي بلوفر صـوف أزرق.. تعلوه سـترة صـفراء.. وبنطلوناً رمادياً.. ثم ركع عند قدميه.. وخاطبه قائلاً:

- سيدي.. لقد تأخرت اليوم عن موعدك للصلاة ..

فأجابه غاندي:

- نعم قد تأخرت.

ولم يكد غاندي يكمل جملته الأخيرة.. حتي انطلقت ثلاث رصـاصـات من فوهة مسـدس صـغير من نوع (برتا) من يد الشاب.. أصابت اثنتان منهما بطن غاندي.. بينما استقرت الثالثة في صدره.

بقي قلب غاندي ينبض لمدة ثمان وعشـرين دقيقة.. أسـلم بعدها الروح تماماً.. وفي المسـاء وضـع جثمانه في شرفة القصر.. وأضيء إلي جانب رأسه.. خمس شمعات ترمز للعناصر الخمسة الهواء.. الضوء.. النار.. الماء.. والأرض.

وفي لحظات انطلق نبأ الوفاة المفاجئة التى كانت بمثابة الصـــدمة للكثيرين.. في كل أنحاء العالم.. وليس الهند فقط.. الذي استولي علي أهله شعور شديد بالخزي من مقتل زعيمهم بين ظهرانيهم.. وعلى يد واحدٍ منهم.

وعاش الشــعب الهندي قصــصــاً عجيبة من الحزن الشــديد كانت لم تنتهِ معالمه ومظاهره إلا بعد سـنواتٍ طويلة.. وبعضــها ما زال قائماً حتى اليوم.. وأعلن المواطنون من أنفســهم الحداد العام.. دون انتظار لإعلانه رسـمياً من قِبل الحكومة.. وتوقفت كل مظاهر الفرح بالبلد الذي كان كل فردٍ فيه ينظر للزعيم الراحل علي أنه الأب الروحي له.. وهو ما عبرّ عنه في نفس ليلة الوفاة خليفته (نهرو) قائلاً :

لقد انطفأ النور من حياتنا.. وحلّ الظلام في كل مكان.. بعد أن رحل الأب الروحي لأمتنا.

(٥) كانتا تسميان آفا .. ومانو..

١.أوراق غاندي

غاندي.. بين العذاب والمستحيل!!

مفتاح شـخصـية غاندي الإنسـان.. والزعيم يكمن في كلمتين اثنتين.. الأولى «العذاب».. والثانية «المسـتحيل».. وبين هذين الكلمتين عاش غاندي حياةً اسـتثنائية.. اختلطت فيها الأوراق كثيراً.. وبقدر اختلاطها.. بقدر وضـوحها.. بقدر الصـدق الذى عاش به هذا الزعيم حياته وهو يرتدى عباءة الحياء الشديد في التعامل مع الجميع.

العذاب

للكاتب والمؤرخ الأمريكي المعاصر ستانلي ولبرت المتخصص في دراسة تاريخ الهند التي زارها للمرة الأولي بعد أسابيع قليلة من اغتيال غاندي.. وله كتابات كثيرة عن غاندي.. تناول فيها سلوكياته وشخصيته.. وقام بتحليلها.. رابطاً في دراساته بين محطات مختلفة من حياة غاندي.. وفقرات.. أو نصـوص مقتبسـة من كتاباته الشـخصـية.. والعديد من المراجع والمؤلفات التى كتبت بمختلف اللغات عن الزعيم الهندي.. وصـاغها على شـكل بحث.. أو تسلسل ببليوجرافي آراء كثيرة عن غاندي.

يقول في خلاصة دراسته لتلك الشخصية:

«أنه شخصاً غريب الأطوار.. لافت للنظر.. يجسد في ذاته معاناة الآخرين.. لذا فقد حوّل نفسه إلى شعلة منيرة.. أو مرجل للألم.. أن مفتاح شخصية هذا الرجل يكمن في مفهوم « العذاب » الذي يتضمن كلا المعنيين.. المعاناة والرغبة.. ».

وفي النهاية يخلص ولبرت إلى رأيٍ مفاده أن ذلك يعود إلى تقاليد التضـحية الدينية ونكران الذات التي توارثها غاندي فهو باختصار رجل تجسد فيه فن تحويل المعاناة إلى سلاح فعال..

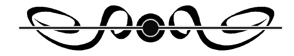
المستحيل

بينما يقول المؤرخ البريطاني «تيري ماكنامي» وهو أيضاً أحد المؤرخين العالميين المشهورين.. والذين لهم كتابات متعددة عن غاندي.. وتاريخ الهند:

(أن أكثر انتقاد مبرر قد يوجه إلى غاندي هو أنه لم يستوعب الشر أبداً على حقيقته.. والحياة بالطبع ليست كذلك.. فلا هي خير مطلق.. ولا سلام دائم.. لكن كان غاندي يريدها دوماً كذلك.. واتخذ من نفسه قدوة لكل من يزعم استحالة تطبيق فكره.. وعقيدته.. وكان شعاره دائماً (أبدأ بنفسي).. وكأن البحث عن الحقيقة طوال حياة غاندي كان بمثابة هاجس يطارده.. كما يعكس ذلك عنوان سيرته الذاتية (قصة تجاربي مع الحقيقة) والحقيقة بالنسبة لغاندي هي الغاية.. واللاعنف هو الوسيلة لبلوغها.

رحيم بالآخرين

وإلى جانب صرامة غاندي وقدرته على كبح جماح نفسه.. فقد عُرِفَ عنه خجله الشديد الذي لازمه من صباه.. إلا أنه كان رغماً عن ذلك محباً حقيقياً للحياة.. الأمر الذي جمّع حوله العديد من الأصدقاء والأتباع.. كان اهتمامه يشمل جميع الطوائف الهندية.. ويمتد ليشمل الجميع.. حتى طائفة المنبوذين اجتماعياً ومرضياً مثل المصابين بأمراض معدية.. أو مرض الجذام[٦] الذين كان ينفر منهم الجميع.. بينما هو لا يكتفِ بلمسهم جسدياً.. إنما يطببهم.. ويرعاهم.. ولعل هذه الصفة تحديداً قد ورثها عن والدته التي كانت شديدة الأثر.. والتأثير في مشوار حياته بالشكل الذي سيلي توضيحه..



(٦) لاحظ هنا عامل هام ومشترك بين غاندي وأشهر ثوار القرن العشرين «جيفارا» فقد اشتهر بذلك أيضاً وله واقعة مشهورة ومعروفة تتضمن إصراره على مصافحة مرضى الجذام عند زيارته لإحدى مستعمراتهم في أمريكا اللاتينية أثناء جولته على الدراجة البخارية التى طاف خلالها كل بلدان القارة الجنوبية وتضمن تفاصيل تلك الرحلة في كتابه المترجم إلى العربية والذى يحمل نفس الإسم الذى وضعه جيفارا وهو «يوميات دراجة نارية» .

٢.غاندي
وأيامه الأولى !!

ولد غاندي في بلدة صــغيرة تســمي (بوربانذر) وتعني باللغة الهندية (المدينة البيضــاء) وهي إحدى المدن الساحلية شمال مومباي ..وتقع بشبه جزيرة كاثياوار.. وهي إمارة صغيرة في ولاية كوجارات التي تقع بشـــمال غرب الهند.. كان يقول عن قريته تلك : أن الحياة البسيطة فيها تظهر أنبل ما في الإنسان.

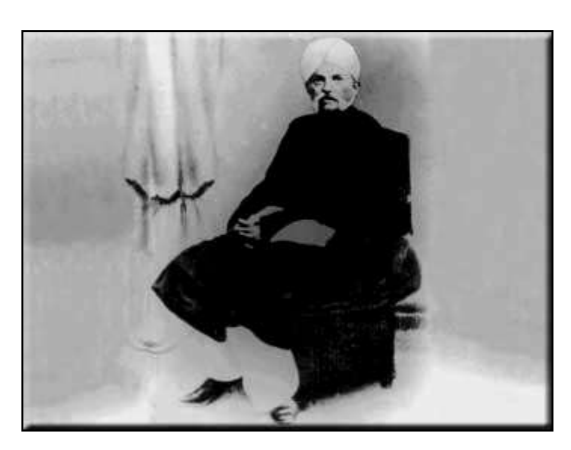
كان في طفولته ضـعيف البنية.. يكره ممارســة الرياضــة.. وهناك واقعة شـديدة الأهمية حدثت له أثناء طفولته نتبين منها كيف دارت طفولة غاندي.. فقد كان من المفروض عليه الذهاب إلى مدرســـته لأداء بعض التمرينات الرياضـــية في الرابعة بعد الظهر.. ولما كان غاندي لا يمتلك ساعة يد فقد كان يعتمد على الشمس في تحديد الوقت.. ولكن في هذا اليوم كانت السماء ملبدة والغيوم كثيفة ولم تظهر الشمس.. فذهب غاندي إلى المدرسة في الوقت الذي كان يعتقد أنه صـحيح ليجد أن التلاميذ قد أدوا التمارين الرياضـية وذهبوا.. وفي اليوم التالي طلبه ناظر المدرســة ليســتفســر منه عن ســبب غيابه بالأمس.. ولما ذكر له غاندي الحقيقة لم يصدقه الناظر واتهمه بالكذب.. فكاد يغمى عليه.. إذ أنه كان يتحرى الصدق دائماً فكيف يكذب.. ويعلق غاندي علي هذه الواقعة في

مذكراته قائلاً : (من المهم أن يتعلم الإنسان الصادق أن يكون حريصاً أيضاً.. لأن إهماله قد يؤدي إلى فهم الناس له خطأ رغم صدقه).

.. وتلقى غاندي تعليمه الابتدائي في مدرسة بوربانذر الابتدائية.. ثم انتقل منها إلى مدرسة راجكوت حتى سن العاشرة ومنها انتقل إلى مدرسة كاتيافار.. وظل فيها حتى بلغ السابعة عشر من عمره وخرج منها ليلتحق بجامعة أحمد آباد وكان طوال فترة دراســته الأولي طالباً عادياً جداً.. من حيث تحصـــيله العلمي.. ونتائجه الدراسية متوسطة.. كان طموحه وهو فتىً صـغير أن يدرس الطب.. لكن بما أن هذا كان يُعتبَر تدنيساً لعقيدته الهندوسية فقد أصـر أبوه أن يدرس الحقوق.. وبالفعل سـافر عام ١٨٨٨ إلى لندن لدراسة القانون.. وهناك بدأت ملامح غاندي الثورية الأولي تتبلور.

عائلة عريقة

وكانت أسـرته هندوسـية متديّنة تديُّناً شـدِيداً.. تنتمي إلى إحدى الطبقات الاجتماعية في الهند تسـمي طبقة (المودة بانيا).. وهي طائفة متفرعة عن طائفة الــــفايشيا المخصصة للتجار.. وكان اسم العائلة «غاندي» يعني باللغة الكوجاراتية (بقَّال) وعرف عنها أنها عائلة محافظة.. صــاحبة مشــاريع تجارية مشهورة.. ميسورة الحال تماماً علي المستوي المادي.. يتمتع أبناؤها بمستوى عالي من الثقافة.. تؤمن بفكرة عدم العنف بأي شـكل من الأشـكال.. وكانت هذه الفكرة دائماً هي أحد مبادئها الدينية الأسـاسـية والتي صار عليها غاندي بعد ذلك.. وكان للعائلة ككل باع طويل في العمل السياسي.



والد غاندي

وعند الأم التي كانت تدعي (بوتلي باي) نتوقف.. فقد كانت شـــديدة الأثر.. والتأثير كما قلنا من قبل في حياته.. يصفها في مذكراته بأنها كانت امرأة بسيطة.. عطوف.. (قديسـة ذات تديّن عميق.. شديدة التقى تذهب يومياً إلى المعبد).. ومنها اسـتمد معظم طباعه الشـخصـية.. وسـماته الروحية التي كانت لاحقاً من أهم معالم شـخصـيته خاصـةً الجانب الديني.. كرسـت حياتها لأمرين.. دينها.. وعائلتها.. التي كانت ضـــخمة العدد يعيش أفرادها في منزل كبير يضـــمهم جميعاً.. فكانت تســـهر علي إطعامهم ورعايتهم جميعاً.. وحين يمرض أحدهم لا تتركه حتى يشفى .

وتعلّم غاندي منها الكثير.. فقد كانت نباتية.. وهكذا عاش هو حياته فيما بعد وقطع غاندي علي نفسه أمامها وعداً خاصـــاً ألا يأكل لحم البقر أو الماعز.. وســـيبقي محافظاً على طهارته كما تأمره ديانته الهندوسـية.. خاصـةً بعد أن اعترف لها ذات يوم أنه تعرف إلى صـديق مسـتهتر شـجعه على التدخين وأكل اللحوم.. وكان يعني هذا انتهاكه للمحرَّمات المفروضـــة على الهندوس بأكله ســـراً لحم الماعز.. فكان قصاصه كابوساً مروِّعاً رأى فيه ماعزاً تموء بإلحاح في معدته.

وبعد ذلك تحولت النباتية بالنسبة له إلى موروثٍ ثقافي عقائدي.. حتى أنه أنشأ ــــ فيما بعد ــــ أثناء إقامته للدراســة في لندن نادياً نباتياً.. رأســه الدكتور أولدفيلد محرِّر مجلة «النباتي».. وصــار الســير إدوين آرنولد نائباً للرئيس.. وغاندي أميناً للسر..

كانت الأم نهارها كله عمل.. وكد.. وتعب.. حتى إذا جاء موعد تناول الطعام تأخذ في الدعاء.. ووراءها صغارها.. كانت كثيرة الصلاة.. كثيرة الصيام وكأنها في حالة صيام دائم.. فاستخدم هو تلك الممارسة الروحية (الصيام) فيما بعد كأداة سياسية.. وروحانية خاصة.

ومن أهم ما حرصــت الأم علي تعليمه لابنها في صــغره هو عدم الكذب علي الإطلاق.. فبقى يقول الصـــدق حتى نهاية عمره مهما كلفه ذلك من عناء.. وهناك واقعة تقول أن أمه كانت لا تتناول طعامها حتى تسمع صوت الوقواق « طائر صغير يشبه العصفور.. أو اليمام..».. وذات يوم غاب الوقواق فلم تسمع له صوتاً.. ولما طال مكوثها بلا طعام وقف غاندي وراء المنزل وأخذ يقلد صوت الطائر.. ولما اكتشفت الأم الحقيقة حزنت كثيراً لكذب ابنها الصغير وصاحت يا إلهي (أي جرمٍ ارتكبته لتهبني ولداً كذوباً).. وأعرضــت عن ولدها.. وأخذ غاندي يبكي تســببه في حزن أمه واعتذر لها وأقسـم أمامها ألا يكذب أبداً.

وذات يوم كان الجو ممطراً أقســمت أم غاندي ألا تتناول طعاماً حتى ترى الشــمس مشــرقة بســبب تألمها الشـــديد من التأثير الســـلبي لشـــدة هطول المطر علي الحياة في قريتهم التي كانت محاصـــيلها الزراعية تتلف من جراء كثرة هطول المطر.. وطال احتجاب الشمس خلف الغيوم.. وخاف أولادها أن تموت لضــعف صــحتها.. وإعراضــها عن الطعام.. وبعدها بيومين تبدي لهم أن الشــمس على وشــك البزوغ من وراء الغمام.. فأســـرع الأولاد إلى داخل المنزل وحملوا أمهم قائلين لها (هيا تعالي لتري الشـمس) لكن عندما خرجوا بالأم غابت الشـمس ثانيةً.. ولما طال انتظارهم لمشـرقها دون فائدة.. قالت الأم (لا يهم يا أولاد.. فالرب لا يريدني أن أتناول الطعام اليوم أيضاً).

ويقال أن الأم كانت تعمل في البيوت أحيانا فضعفت صحتها وقال لها غاندي الصغير :

(ارتاحي يا أمي فســـوف أبدأ من هذا اليوم العمل بدلاً منك).. وذهب للعمل في أحد معســـكرات الإنجليز.. وذات يوم منحه الضـــابط طعاماً وحين لفه غاندي قال الضـــابط : (إن كنت جائعاً فكل هنا والآن ولماذا تأخذ الطعام للبيت؟) فانهار الطفل باكياً وقال : لابد أن تأكل منه أمي أولاً.. فتعجب الضابط من فعل الطفل الصغير الذي يضحي لأجل أمه وقال : مبارك للأم الذي أنجبت ولداً باراً مثلك.

وهنا نتوقف قليلاً لنحاول فهم صحة هاتين الواقعتين من عدمهما.. فلا تتفق عمل والدته في المنازل مع ما عُرِفت به أسرة غاندي من يسر الحال.. وأهمية منصب والده.. وجده كرؤساء للوزارة في المقاطعة بالكامل.

والواقعة الثانية عمل غاندي نفسه مع الضباط التابعين لشركة الهند الشرقية التي كانت إحدى مظاهر الاحتلال البريطاني للهند.. وهنا يبرز السؤال الهام كيف سمحت أسرته المعروف عنها كراهيتها لسلطات الاحتلال له وهو طفل بالعمل مع شركة تابعة للمحتل ؟

ولكن هاتان الواقعتان وردتا في مذكرات غاندي ولم يتوقف عند تحقيقها الباحثون.

ومن أقوال الأم لابنها غاندي :

(يا بني أن التعليم الذي يلبي حاجات المعدة فقط ليس فضيلة على الإطلاق ..عليك أن تدرس لتخدم المجتمع وتوظف ما تعلمته لصالح البلاد) .

المنبوذون :

وحين كانت الهند تضم طبقة اجتماعية يعرف أصحابها بـــ (المنبوذين) يحرص الهندوس علي عدم لمسهم لأي سبب.. كانت أم غاندي ترفض العمل بهذا المبدأ.. وكلما مرت بأحدهم لمسته ودعته لتنظيف نفسه وتلاوة الصلوات.. وكان إيمانها عميقاً بهذه الفكرة وظل غاندي على هذا المبدأ طول حياته فلقد كان لا يتقبل فكرة (المنبوذين) وحاول أن يساعدهم طيلة حياته حتى أنه أطلق عليهم اسم «هاريجان» وتعني « أطفال الرب ».

الأب :

اسمه كرمتشند غاندي « ورد في بعض الكتابات قراندي».. عمل عضواً في محكمة راجستايك ثم رئيساً للوزراء في راجكوت.. وكان أبوه (جدّ غاندي) رئيس وزراء على ثلاثة مدن.. وشغل منصب رئيس وزراء إمارة بورباندر.. ورث غاندي عن أبيه تعففه وبعده عن الملذات.. والصلابة أمام عثرات الحياة.. والصدق في كل شيء.. والعمل علي خدمة الناس.. والنزاهة في المعاملات المالية.. حتي أن والده بعد وفاته لم يترك إلا القليل من المال لأولاده.. برغم ما كانت تتمتع به الأسرة من رفاهية وكثرة المال.. ووالد غاندي يرتبط في ذاكرة ولده بالحزن الشديد.. والندم اللذين يعكسان شدة حساسية هذا

الرجل.. ويعود هذا الشعور بالذنب حيال والده لموقفين عاشهما معه أشار إليهما في سيرته الذاتية.. الأول سرقته لأخيه وهو طفل صغير.. وشعوره بالندم والخطأ فكتب خطاباً لأبيه يعترف له بالسرقة.. وبكى أبوه عندما قرأ الجواب لأن ولده لص.. فبكى غاندي لإحساس والده تجاهه.. وهذه الحادثة علمته ألا يفعل شيئا مخجلاً.. والثاني أنه عندما تلقي نبأ وفاة والده كان في فراشه مع زوجته كاستورباي.. وكان ذلك بالنسبة له وصمة لم يستطع أن يمحوها أو يناساها أبداً .

زواج غاندي

من مثارات الاستغراب الشديد في عقيدة الديانة الهندوسية إجازة تزويج الأطفال وعقد قرانهم بشكل رسمي وهم ما يزالون في مهدهم.. والأغرب ما يحدث في حالة وفاة الطفل الذكر حيث تحكم هذه العقيدة علي الطفلة أن تشب كأرملة.. وتعيش حياتها فيما بعد بلا زواج.. لكن عموماً جرّم القانون الهندي الحديث ذلك.. ومنع عقد القران إلا في سن الشباب.

وطبقاً للتقاليد والأعراف الهندوسية تزوج غاندي وهو في الثالثة عشر من عمره بدون علم مسبق بالأمر.. وكان عمر زوجته وتدعي كاستورباي وقتها ١٢ سنة.. وصفها فيما بعد في مذكراته الشخصية بأنها أهم إنسان في حياته وسجنت بسببه أكثر من مرة.. وعاشا معاً كزوجَين وفيين طوال ٦٢ سنة.. وأسفر زواجهما عن إنجاب أربعة أبناء.. وفي ديسمبر ١٩٤٣ مرضت زوجته مرضاً شديداً وتوفيت في فبراير من العام التالي ١٩٤٤ مباشرةً.



٣. غاندي.. والهندوسية

قبل أن نستعرض تجارب غاندي الثورية.. ومشوار نضاله الوطني.. لابد أن نتوقف عند ثلاث ركائز تمثل قمة الأهمية المطلقة في بناء شخصيته.. ومن ثم حركته الثورية الخاصة.. هذه الركائز الثلاثة هي علي الترتيب.. تكوينه العقائدي.. ثم الثقافي.. وأخيراً الفكري..

ولأن ديانة (غاندي) وهي الديانة الهندوسية كانت شديدة التأثير في حياته وتركيبته العقائدية كإنسان متدين.. فلابد أن نتوقف أولاً لنعرف ماذا تعني تلك الديانة.. وما هو مفهومها؟

الديانة الهندوسية

هي ديانة وثنية قديمة يعتنقها معظم أهل الهند.. تشكل في مجملها مجموعة من العقائد والتقاليد تجمعت بشكل تراكمي عبر مسيرة طويلة بدأت من القرن الخامس عشر قبل الميلاد وحتى وقتنا الحاضر.. وحتى الآن.. ومن وقتٍ.. لآخر تتدخل الحكومة الهندية لإلغاء أو تعديل بعض طقوس هذه الديانة المتعصبة في كثيرٍ من جوانبها.. وسوف نشير لذلك في موضعه.. وتتسم ببعض القيم الروحية والخلقية المتشددة إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية.. تتخذ عدة آلهة مرتبطة بالأعمال

والمناطق المتعلقة بها.. فلكل منطقة إله ولكل عمل أو ظاهرة إله .

لا يوجد للديانة الهندوسية مؤسس معين.. ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون.. فقد تشكلت أسس الديانة وكذلك نصوصها الواردة بكتبها الخاصة عبر مراحل زمنية طويلة.. وأن كان أغلب الظن أن الآريين الغزاة الذين قدموا إلى الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد هم المؤسسون الأوائل للديانة الهندوسية.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد تطورت الهندوسية على أيدي الكهنة البراهمة الذين يزعمون أن في طبائعهم عنصراً إلهياً.. ثم تطورت مرة أخرى في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق عدة نصوص جديدة أضيفت إليها وعرفت باسم (قوانين منو شاستر)..

كتب الهندوسية

للهندوسية عدد هائل من الكتب عسيرة الفهم.. غريبة اللغة.. وقد أُلِفت كتبٌ كثيرة لشرحها وأخرى لاختصار تلك الشروح.. وكلها بالنسبة لهم مقدسة.. وأهم هذه الكتب:

١- الفيدا : وهي كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة.. وتصور حياة الآريين.. ومدارج الارتقاء للحياة العقلية من السذاجة إلى الشعور الفلسفي.. وفيها أدعية تنتهي بالشك والارتياب ثم ترتقي بقارئها إلى وحدة الوجود.. وهي تتألف من مجموعة كتب منها:(يجور فيدا) يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين ..(سم فيدا) أناشيد ينشدونها أثناء إقامة الصلوات والأدعية.. (أثروا فيدا) عبارة عن مجموعة من الرقى والتمائم لدفع السحر والتوهم والخرافة والأساطير والشياطين.. وكل واحد من هذه الفيدات يشتمل على أربعة أجزاء أخرى.

٢- قوانين منو : وضعت في القرن الثالث قبل الميلاد في العصر الويدي الثاني.. عصر انتصار الهندوسية على الإلحاد الذي تمثل في (الجينية والبوذية).. وهذه القوانين عبارة عن شرح لما يسمي اللويدات التي تبين معالم الهندوسية ومبادئها وأسسها.

لاءات الهندوسية

لا توحيد :

لا يوجد في هذه الديانة توحيد بالمعنى الصريح للكلمة.. لكنهم إذا أقبلوا على إله من الآلهة أقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى تختفي عن أعينهم الآلهة الأخرى.. وعندها يخاطبونه برب الأرباب أو إله الآلهة.

التعدد :

يقولون أن لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلهاً ومعبوداً خاصاً بها: كالماء.. والهواء.. والأنهار.. والجبال.. وهي آلهة كثيرة يتقربون إليها بالعبادة والقرابين.

التثليث :

في القرن التاسع قبل الميلاد جمع الكهنة الآلهة في إله واحد أخرج العالم من ذاته وهو الذي أسموه:

راهما : وتعني الموجود .

فشنو : وتعني الحافظ .

سيفا : وتعني المهلك .

فمن يعبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدها جميعاً أو عبد الواحد الأعلى ولا يوجد أي فارق بينها.. وهم بذلك قد سبقوا النصارى في القول بما يسمي عقيدة التثليث.

غاندي والهندوسية وعبادة البقر

البقرة هى أكثر الأنعام تأثيراً فى حياة الإنســـان لأنها تحرث الأرض وتحمل الأمتعة ومنها تخرج الأغذية الرئيســـية للإنســـان عبر كل تاريخه قديماً.. وحديثاً .. فهى تدر اللبن.. وهى المصـــدر الأول للبروتين.. ودون باقي شعوب العالم بمختلف دياناتهم يشترك الهندوس جميعاً فى تقديس البقرة.. وأنواع أخري من الزواحف كالأفاعي.. وأنواع من الحيوانات كالقردة.. ولكن تتمتع البقرة من بينها جميعاً بقداســة تعلو على أي قداســة أخري.. ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين ولها حق الانتقال إلى أي مكان ولا يجوز للهندوكي أن يمسها بأذى أو يذبحها وإذا ماتت يتم دفنها بطقوس دينية خاصة.. فقد حظيت البقرة فى الهند بأســمى مكانة.. وهى من المعبودات الهندية التى لم تضــعف قداســتها على مر السنين وتوالى القرون.. ففى «الويدا» الكتاب المقدس عند الهندوس حديث عن قدسيتها والصلاة لها.. ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدســية.. حتى فى الأدب المنســوب للمهاتما غاندى تفســير لما حظيت به البقرة قديماً وحديثاً من نفوذ دينى .

وقد يفاجأ كثير من الناس إذا علموا أنها تشـــغل مســـاحة ضـــخمة جداً من تاريخ التطور العقائدى للبشـر.. وهي بلاشـك أشـهر معبود يعبد بعد الله فى الأرض.. وقد يصـاب الكثير من الناس بالدهشـة لو عرفوا أن أول إله أُشرك به الله فى الأرض كان البقرة.

وقد تزداد الحيرة والدهشــة حينما نذكر الناس أن النبى الوحيد الذى أُرغم على الرضـوخ إلى شـرك قومه رغم اسـتنكاره لما فعلوه كان كمان هو هارون حينما اسـتخلفه موســى على بنى إسـرائيل عندما أضلهم السامري وعبدوا العجل.

ومن هذا المنظور فقط يمكننا استيعاب تسمية أطول وأول سورة فى القرآن بعد الفاتحة باسم«البقرة»

.

إن أتباع الديانات الســـماوية الذين يفترض أنهم يعبدون الله في الأرض هم «المســـلمون واليهود والنصـــارى» يمثلون أغلب ســكان الأرض الآن يليهم البوذيون تعداداً.. ثم «الهندوس» الذين يتخذون من البقرة رمزاً للإله.. وهو ما يجعل البقرة ثانى معبود فى الأرض بعد الله تعالى!!

وعلاقة البقرة بعقيدة الهندوس ترجع إلى خمســـة آلاف عام أى تقريباً إلى عهد أبى الأنبياء ســـيدنا إبرهيم عليه الســـلام.. وهذه هي الحقيقة بينما يزعمون هم أن عقيدتهم ترجع إلى عهد ســـيدنا آدم أبى البشر.

والهندوس ليس لديهم رُسـل وإنما عقيدتهم تكونت بتراكم آراء فلاسـفتهم الذين يسـمونهم «فيدارز» ويعتبرون البقرة هى رسـول من الإله إليهم.. وكتابهم المقدس يسـمى«بهاجوات جيتا» وتقوم عقيدتهم على وجود عدد من الآلهة وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم وأكبر ثلاثة آلهة لديهم «براهما» إله الخلق.. يليه «بيشنو» وهو الإله الحفيظ و«شيفا» إله الدمار.

كليا ترو

أما موضع البقرة فى تلك العقيدة فهى أن الإله برهما حينما خلق الإنسان أنزل له البقرة ونزل معها ليريه كيف يحلبها ويركبها ويذبحها فهو قد أنزلها من السماء لتهب الحياة للإنسان ويسمونها «كلياترو» وتعنى رفيق الإله!

ويمكننا استنتاج بعض الملاحظات قد تساعد فى فهم هذه العقيدة وهى ما يلى:

- أن هناك تشـــابه بين نزول الأنعام من الســـماء فى القرآن ونزول البقرة برفقة الإله براهما عند الهندوس من السماء لتهب الحياة للإنسان.
- هناك تشابه بين اسم سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين اسم الإله براهما.

ويمكننا استنتاج أيضاً أنه من الممكن أن تكون قصة سيدنا إبراهيم أو بعض صحفه قد وصلت إلى بلاد الهند.. وهناك تم تحريف اسمه إلى براهما.. ومن ثم تأليهه.. وربط قصة البقرة المنزلة به.. والذى يساند ما ذهبنا إليه أن تاريخ ظهور تلك العقيدة هو عصر سيدنا إبراهيم عليه السلام .

هذه هي قصة البقرة..

فماذا عن موقف غاندي من عبادتها؟

للأسف ما سنقرأه من سطور قادمة نشرت في العديد من الكتب.. ومواقع شبكة المعلومات الدولية[٧] التى تعرضـت لسـيرة غاندى.. وتقول مصـادرها أنها نقلاً عن مقال كتبه غاندى بنفســه في حياته حمل عنوان «أمي البقرة» ونحن لا نستطيع لإثبات ذلك أو نفيه لأنه للأسف ثانية لم يذكر أيٍ من هذه

(٧) موقع «بوابة العرب» مقال «قصة أشهر معبود عبد الله » إبراهيم الجيار.

الكتابات إسم المصدر.. ولا توقيت نشر المقال.. كما لا نستطيع أيضاً أن نتجاهل ما فيه لأهميته ونحن نرصد البعد العقائدي في تكوين من نتحدث عنه.. لذا ننقل أهم الفقرات مما أُسنِدَ إليه على لسانه.. دون تعليق:

أمى البقرة !

- حماية البقرة التى فرضتها الهندوسية هى هدية الهند إلى العالم.. وهى إحساس برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان.. والفكر الهندى يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهى كذلك فى الحقيقة.. إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندى.. هى خير حماية للهند.
- عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيواناً.. لانى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.
- أمى البقرة أفضل من أمى الحقيقية من عدة وجوه.. فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا.. ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً.. ولا تطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادى.
- وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة.. ولكن أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئاً ذا بال.. وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة.. وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهى حية.. لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.
- أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم.. ولكن لأبين السبب الذى دعانى لعبادة البقرة.. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسى واحداً من هؤلاء الملايين.

المجتمع الهندوسي

السطور السابقة هي ما قاله غاندي ونعود لنتحدث عن باقي ملامح المجتمع الهندوسي .. ونقول بدايةً أنه منذ أن وصل الآريون إلى الهند شكلوا طبقات ما تزال قائمة إلى الآن.. ولا سبيل لإزالتها لأنها تقسيمات أبدية من خلق الله ـ كما يعتقدون ـ ووردت الطبقات في (قوانين منو) على النحو التالي:

١- **البراهمية :** وهم الذين خلقهم الإله براهما من فمه : منهم المعلم والكاهن.. والقاضي.. ولهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة.. ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم.

٢- **الكاشتر :** وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه.. يتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع ..

٣- **الويش :** وهم الذين خلقهم الإله من فخذه.. يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال.. وينفقون على المعاهد الدينية ..

٤- **الشودر :** وهم الذين خلقهم الإله من رجليه.. وهم مع الزنوج الأصليين يشكلون طبقة المنبوذين وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاثة السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة.

٥- يجب علي الجميع الخضوع لهذا النظام الطبقي بدافع ديني..

٦- يجوز للرجل أن يتزوج من طبقة أعلى.. أوأدنى من طبقته.. على ألا تكون الزوجة من طبقة الشودر الرابعة.. ولا يجوز للرجل من طبقة الشودر أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته بأي حالٍ من الأحوال..

٧- البراهمة هم بالنسبة لهم صفوة الخلق.. وقد ألحقوا بالآلهة.. ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم « شودر » ما يشاؤون.

٨- البرهمي الذي يكتب الكتاب المقدس هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه.

٩- لا يجوز للملك - مهما اشتدت الظروف - أن يأخذ جباية أو إتاوة من البرهمي

١٠- إن استحق البرهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه.. أما غيره فيقتل..

١١- البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشودري الذي ناهز المائة كما يفوق الوالد ولده ..

١٢- المنبوذون أحط من البهائم وأذل من الكلاب بحسب قانون منو ..

١٣- من سعادة المنبوذين أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب..

١٤- إذا مد أحد المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا ليبطش به قطعت يده.. وإذا رفسه قطعت رجله ..

١٥- إذا هم أحد المنبوذين بمجالسة برهمي فعلى الملك أن يكوي دبره.. وينفيه من البلاد .

١٦- كفارة قتل الكلب والقطة والضفدع والغراب والبومة.. تتساوي مع كفارة قتل رجل من الطبقة المنبوذة.

وفيما بعد.. وعلي مراحل زمنية بطيئة طرأت بعض مظاهر التحسن البسيط في أحوال المنبوذين خوفاً من استغلال أوضاعهم ودخولهم في أديان أخرى لا سيما النصرانية التي بدأت تغزوهم.. أو الشيوعية القائمة علي فكرة صراع الطبقات التي كانت قد بدأت تنتشر علي مستوي العالم في تزامن واحد مع استقلال الهند في الأربعينيات.. بينما وجد كثير من أبناء طبقة المنبوذين العزة والمساواة في الدين الإسلامي فاعتنقوه.

تظهر معتقداتهم فيما يسـمي (الكارما.. وتناسـخ الأرواح.. والانطلاق ..ووحدة الوجود.. وهي علي الترتيب تعني التالي :

الكارما : قانون الجزاء أي أن نظام الكون إلهي قائم على العدل المحض.. هذا العدل الذي سـيقع لا محالة إما في الحياة الحاضــرة أو في الحياة القادمة.. وجزاء الحياة يكون في حياة أخرى.. والأرض هي دار الابتلاء كما أنها دار الجزاء والثواب.

تناسخ الأرواح : إذا مات الإنسان يفنى منه الجسد وتنطلق منه الروح لتتقمص تحل في جسد آخر بحسب ما قدم من عمل في حياته الأولى.. وتبدأ الروح في ذلك دورة جديدة ..

الانطلاق : صـالح الأعمال وفاسدها ينتج عنه حياة جديدة متكررة لتثاب فيها الروح أو لتعاقب على حسب ما قدمت في الدورة السابقة.

الأجسام تحرق بعد الموت ـــ علي حسب اعتقادهم ـــ لأن ذلك يسمح لها بأن تتجه إلى أعلى وبشكل عمودي لتصــل إلى الملكوت الأعلى في أقرب زمن.. كما أن الاحتراق هو تخليص للروح من غلاف الجسـم تخليصــاً تاماً.. عندما تتخلص الروح تصـعد.. والمرأة التي يموت زوجها لا تتزوج بعده.. بل تعيش في شــقاء دائم.. وتكون موضــعاً للإهانات والتجريح.. وتكون في مرتبة أقل من مرتبة الخادم.. وقد تحرق المرأة نفسها إثر وفاة زوجها تفادياً للعذاب المتوقع الذي ستعيش فيه.. وهو ما جرّمه القانون الهندي الحديث بعد ذلك.. ومنع حدوثه.

ومن بين كل الأسس.. والقواعد الهندوسية كان تأثر غاندي الأكبر بما يسمي الطريقة (البراهمانية) التي هي عبارة عن ممارســة يومية ودائمة.. تهدف إلى جعل الإنســان يتحكم بكل أهوائه وحواســه بواسـطة الزهد والتنسـك.. وعن طريق الطعام.. واللباس.. والصـيام.. والطهارة.. والصـلاة بخشـوع.. والتزام الصــمت التام عن الكلام يوم الاثنين من كل أســبوع.. ويتخيل ممارســو هذه الطريقة أنهم يتوصلون إلى تحرير ذاتهم.. حتي يتسني لهم القدرة علي تحرير الآخرين.

لكن ما من شـك في أن التراث الروحي الهندوسـي هو الذي زوَّد غاندي بالأدوات الفكرية والنفسية والعملية للعمل الداخلي.. وجميعها تندرج فيما يُعرَف في الهند بـــ (الــكرما يوجا– karma yoga) وقوامه رياضــة يومية دائمة تسـتهدف سـيادة المرء على حواسـه وأهوائه وشـهواته.. بواسـطة الاكتفاء بالقليل طعاماً ولباساً.. والصيام البدني والنفسي.. والطهارة – طهارة القلب والبدن – والصلاة.. وجمع الحواس.. والصمت الداخلي.. وعدم التعلق بنتائج العمل.. نجاحاً أو فشلاً.. والزهد في ثماره.. بل تقديم هذا العمل قرباناً للإله.. فمن شــأن هذه الرياضــة أن تشـحذ الملكات الفكرية والنفسـية والبدنية للمرء.. وتُحرِّرها من دائرة الأنانية.. بما يجعلها أداة حاضــرة طيِّعة لاسـتقبال التحول الروحي الداخلي وإنفاذ إلزاماته القاهرة في الحياة العملية..



٤. غاندي.. واللاعنف (الساتيا جراها)

من الشخصيات التي كان لها تأثير كبير في حياة غاندي وأفكاره الزعيم «جوخال» وهو أحد الرجال البارزين بالهند والذين سعوا من أجل الإصلاحات التعليمية.. ويوجد أيضاً « دادا بهاي » والذي يعد مؤسس الحركة القومية في الهند وكان أحد العناصر المهمة التي تعلم منها غاندي مبدأ اللا عنف والسلبية البطولية.. و «رايتشاند بهاي ».. الصائغ الثري في مومباي.. الذي كان بمثابة المرشد الروحي والحقيقي لغاندي.. بما كان يتمتع به من ثقافة واسعة.. وتديُّن عميق ودراية كاملة بالمذاهب الهندوسية..

كتب أثرت في تكوين غاندي الثقافي.. والسياسي :

تأثر غاندي بعدد من المؤلفات كان لها دور كبير في بلورة فلسفته ومواقفه السياسية منها :

- (نشيد الطوباوي).. وهو عبارة عن ملحمة شعرية هندوسية كُتِبَتْ في القرن الثالث قبل الميلاد.. واعتبرها غاندي بمثابة قاموسه الروحي ومرجعاً أساسياً يستلهم منه أفكاره..
- (موعظة الجبل) وهو كتاب في المواعظ الحياتية.. مستمد من بعض تعاليم الإنجيل..
- (حتى الرجل الأخير) للفيلسوف الإنجليزي جون راسكين الذي مجد فيه الروح الجماعية والعمل بجميع أشكاله..
- (الخلاص في أنفسكم) للأديب الروسي الشهير تولستوي.. الذي زاده قناعة بمحاربة المبشرين المسيحيين..
- (العصيان المدني) للشاعر الأميركي هنري ديفد تورو ..
- (جيتا) وهو من أكثر الكتب التي أثرت في غاندي.. وهو كتاب من التراث الهندي ويرى أن الروح واحدة ولكن الأجساد تختلف .

فلسفة اللا عنف (الساتيا جراها) :

جاء كفاح غاندي ضد الاستعمار مبنياً على المبدأ الأساسي الذي استمده من فلسفته الدينية.. حيث اعتمد علي ما يعرف بفلسفة (الساتيا جراها) والتي تعني المقاومة السلمية أو سياسة اللا عنف

وهذا المصطلح بالسنسكريتية يعني «التمسك بالحقيقة».. كما أن غاندي نفسه ترجمه في مذكراته الشخصية ب معني «القوة النابعة من الروح ».. وجاءت تعريفات أخري للتسمية تدور حول كف الأذى عن الآخرين.. أو تعميم الرحمة والمحبة للبشر .. و من المهم أن نلفت نظر القارئ لحقيقة مهمة جداً.. وهي أن ذلك المنحنى الذي تبناه (غاندي) من خلال فلسفته الهندوسية الخاصة.. قد سبقه إليها العالم الإسلامي الإمام الشيرازي في نظريته الخاصة التي تشتمل علي العديد من الأقسام والفصول تدور حول النظرة الإسلامية الداعية للاعنف.. حيث يقول الإمام الشيرازي عن اللاعنف: في الإسلام لا عنف ولا إرهاب ولا دكتاتورية ولا استبداد ولا حب لإراقة الدماء.. وإنما هو عدل وشورى وتبادل للرأي.. وحب للخير ونشر لأولوية الأمن ودعوة للسلام في رفق ولين وإخاء.. كما تجلى في قول الله سبحان وتعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾.. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان].

وفي آية أخرى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت] .

كما يقول الإمام الذي دعا إلى اتخاذ اللاعنف كبديل للحول والقوة في كل ما يواجه الإنسانية من مصائب وويلات (الإسلام يدعو إلى السلام ويعتبر السلم هو الأصل والحرب هي الاضطرار وأن الجهاد والحرب حكم ثانوي واضطراري.. فالإسلام ينبذ العنف والقسوة والإرهاب قولاً وفعلاً).

كما يعتمد هذا المبدأ على عدد من الأسس الدينية والسياسية والاقتصادية التي تندمج معاً لتشكل في النهاية صورة خاصة جداً من صور المقاومة الشعبية ضد الظلم.. والاحتلال.. باللاعنف أولاً.. الذي تبنَّاه غاندي والذي في اعتقاده ـ وحسب رأيه الشخصي ـ هو أول قوانين الحياة.. ويقول غاندي : (وحده اللاعنف.. قادر على استعادة الحقيقة.. ثم بالعنف إن لم يوجد خيار آخر..).

ومن ناحيته كان غاندي يشرح لمواطنيه مبادئ هذه الطريقة قائلاً :

(إن سياسة اللاعنف لا تعني الجبن أو الخوف من المواجهة المباشرة مع العدو بل على العكس فهي وسيلة لإظهار ظلم الطرف الآخر وأساليبه القهرية مع الفهم الكامل والإلمام بجميع أبعاد المشكلة والخطر المحيط.. واللجوء إلى العنف في النهاية إن لم يوجد سبيل آخر غيره ..إن الامتناع عن العقاب لا يعتبر غفراناً إلا عندما تكون القدرة عليه قائمة فعلياً.. ومن الممكن اللجوء للعنف إن لم يوجد سبيل آخر غيره..

والهدف من سـياسـة اللاعنف في رأي غاندي هو إبراز ظلم المحتل من جهة.. وتأليب الرأي العام على هذا الظلم من جهة أخرى تمهيداً للقضاء عليه كلية أو على الأقل حصره والحيلولة دون انتشاره.. ويشـترط غاندي لنجاح هذه السـياسـة تمتع الخصـم ببقية من ضـمير وحرية تمكنه في النهاية من فتح حوار موضوعي مع الطرف الآخر..

أساليب اللاعنف:

ويتبلور الجانب التطبيقي من هذه الفلسفة : السياسة في عدة أساليب يتم التعامل بها سواء مجتمعة.. أم منفصـلة.. وتتمثل في.. الصـيام.. المقاطعة.. الاعتصـام.. العصـيان المدني.. والتمسـك بها حتى وإن كان الثمن هو السجن.. أو حتي الموت نفسه..

يقول غاندي في مقدمة كتابه (حضارتهم وخلاصنا):

«في لندن كنت قد اتصلت واجتمعت بجميع الفوضويين الهنود المعروفين.. لقد أعجبتني شجاعتهم.. لكنني شـعرت كم خدعتهم حميتهم.. وفهمت أن العنف لا يمكن أن يكون فيه الحل لمشـاكل الهند.. لأن المدنية الهندية في حاجة إلى سـلاح أمضـى لحمايتها من العنف.. إني أحذر من الاعتقاد بأنني أقصـد إقامة اسـتقلال فوري للهند.. ذلك لأني أعلم بأن الهند لم تنضـج بعد.. وتأكيدي هذا قد يكون في غير محله.. لكن هذا هو رأيي.. أن عملي.. كعضـو في جسـم.. يميل بدون شـك إلى إقامة اسـتقلال برلماني كما يرغب الشعب الهندي.. فأنا لا أرغب في تحطيم خطوط السكك الحديدية ولا المستشـفيات(التابعة للاحتلال) وأنا لا أرغب في إلغاء المحاكم الإنجليزية.. مع العلم أني أتمنى ذلك بحرارة ..إن القسـم الوحيد من برنامجي الذي وضع موضع التنفيذ هو: (اللاعنف) ولو وضعت مكان العنف مبدأ الحب..

العامل الحيوي في ديانتهم.. وأدخلت ذلك في سياسـتها لجاءها الاسـتقلال من دون عناء" وقد تحداه كثير من الناس آنذاك و راهنوا على خسـارته وفشـل أفكاره.. وأنه يجب محاربة العدو بسـلاحه.. فكان رده (إننا علينا أن نحارب العدو بالسـلاح الذي يخشـاه هو.. لا بالسـلاح الذي نخشـاه نحن).. و قد أثبت التاريخ في نهاية الأمر أنه كان على صواب»..

ويرى غاندي من خلال سـيرته الذاتية التي سـماها (قصـة تجربتي مع الحقيقة) أن اللاعنف هو الفضـيلة المثلى.. وأن اسـتخدامه مع مبادئ الحقيقة والشـجاعة واللاعنف من أهم أسـباب الاسـتقلال والتحرر الاجتماعي .



٥.غاندي.. والإرهاصات الثورية الأولى

الجذور الثورية في التركيبة الخاصـــة لغاندي ربما تعود أول ما تعود لنشـــأته الأولي في قريته طفلاً.. وتكوينه الديني الموروث.. بالشـكل الذي أشـرنا إليه.. ثم تأتي مرحلة الشـباب بتكوينها الثقافي.. والفكري.. ونسـتطيع أن نقسـمها لمرحلتين.. الأولى : في الهند قبل سـفره للدراسة ببريطانيا.. والثانية : أثناء وجوده هناك للدراسـة.. ثم جاء سفره إلي جنوب أفريقيا عقب عودته لبلاده ثانية.. كل ذلك كان بمثابة الأرض الخصـــبة التي نبتت فيها.. وازدهرت بذور فكره السياسي الثوري.. لكن المناخ العام الذي عاش فيه غاندي قبل سفره كان بلا شك ذو أثر شـــديد في الصـــياغة العامة لمشـــروعه الثوري.. بكل ما كان يراه من قمع.. وإذلال قوات الاحتلال لأبناء قوميته.. لكن المؤكد أن الإرهاصـات الأولي لملامح نضـوجه الثوري كانت هناك.. في انجلترا..

في بريطانيا :

ذهب غاندي في سـبتمبر ١٨٨٨إلى إنجلترا لدراسـة القانون بجامعة (لنكولنز إن) تمهيداً لحصـــوله علي إجازة في الحقوق تأهله للعمل في مجال المحاماة عند عودته لبلاده.. وهناك مكث ثلاث ســـنوات.. عاش خلالها كطالب فقير معوزاً يهتم فقط بدروســـه.. خاصـــةً في الشهور الأولى لإقامته هناك.. والتي قضاها منعزلاً تماماً عمن حوله.. بسبب خجله الشديد.. وعزوفه عن مخالطة الآخرين.. حتى لا يحنث في ســـابق وعده لأمه بألا يمس اللحم والخمر.. أو يسـتدرجه رفاق السـوء للتعرف علي النسـاء لدرجة أنه كان لا يبرح غرفته إلا للذهاب لحضور محاضراته فقط ..

لكنه شيئاً.. فشيئاً بدأ يتخلى عن تقوقعه هذا.. ويخرج ليخالط زملاءه.. ويحضر تجمعاتهم.. إلا أنه لم يستطع أن يتكيف تماماً مع نمط الحياة هناك.. وعلي حسـب تعبيره في مذكراته الشـخصـية أنه قد واتتْه رغبة عابرة في أن يعيش حياته كجنتلمان بريطاني فأخذ يتلقي دروســاً في الرقص.. لكنه سـرعان ما عاد إلى سابق عهده.. مؤثراً عزلته السابقة التي كانت أكثر اتساقاً مع طبيعته الشخصية.. مما وفر له الفرصـــة ليقرأ في الأديان السـماوية خاصـــةً (الإسـلام والمسـيحية).. وكذلك العديد من كتب الفلسـفة والأخلاق .. فاطَّلع على الإنجيل.. فأخذت «موعظة المسيح» على الجبل بمجامع قلبه..

وقرأ كتاب « توماس كارلايل » في البطل وعبادة البطولة.. وأعجِب من خلاله بخصال النبي محمد ^ إعجاباً شديداً.. كما تعرَّف على صديقين (ثيو صوفيين) أرشداه لضرورة قراءة (البْهَكَفَدجيتا) « وهو كتاب الحكمة الهندوسـية يرجع تاريخ تداوله إلي القرن الثالث قبل الميلاد».. والذي اعتبره غاندي بمثابة قاموسه الروحي الرئيسي والمرجع الذي ظل يستلهم منه أفكاره حتى وفاته.. وفي تلك الفترة أيضاً قرأ مفتاح الثيوصوفيا للسيدة بلافاتسكي الذي دفعه إلى التعمُّق في الهندوسية ورسَّخ فيه قناعة بأن الأديان.. وأن اختلفت في بعض توجهاتها.. فهي واحدة في منبعها الأصلي .

ضياع.. وعدم توازن

وبعد فترةٍ قصيرة من إقامته في لندن وجد نفسه في حالة متواصلة من الضياع الفكري.. وعدم التوازن.. وهو يعقد مقارنة جبرية بين وطنه.. وذلك الوطن الذي يقيم فيه.. وأحوال هذا الشعب الإنجليزي المرفه.. وأحوال مواطنيه من الشعب الهندي الذين لا يجد معظمهم قوت يومه.. وكانت إنجلترا بالنسبة له بلداً غارقاً في المطر والدخان.. تبتلع كل ثروات العالم.. ويتم فيها كمًا كبيرًا من أعمال وصفقات مشروعة.. وغير مشروعة.. وكم من أسفار واكتشافات.. نجم عنها حروب مدمرة.. خرجت من تحت مظلة هذا البلد.. شعوب أمريكا واستراليا تمت تصفيتها.. الأفارقة استعبدوا بالملايين.. والهند ذلك البلد متعدد المصادر والثروات والثقافات.. صار أوكاراً يعشش فيها الفقر والعوز.. بفعل.. أو من أجل رفاهية هذا المواطن الإنجليزي.. الذي يعيش حياته بالطول.. والعرض.. ولا يهمه إلا فنجان شاي الساعة الخامسة من عصر كل يوم.. وياقته المنشاة البيضاء ..

يقول غاندي في مقدمة كتابه (حضارتهم وخلاصنا):

(في لندن كنت قد اتصلت واجتمعت بجميع الفوضويين الهنود المعروفين.. لقد أعجبتني شجاعتهم.. لكنني شعرت كم خدعتهم حميتهم.. وفهمت أن العنف لا يمكن أن يكون فيه الحل لمشاكل الهند..).

الحيرة

وبدأ يسأل نفسه :

(ما هو سر تلك القوة والحرية اللتين يتمتع بهما البريطانيون ؟.. هل هو في القانون الذي يكفل لكل مواطن حقه في العيش بسلام.. أم في قوة الوضع الاقتصادي الذي يعود فيه الفضل أصلاً لخيرات.. وثروات بلاده.. وباقي البلاد التي تستعمرها تلك الدولة وتنهبها بلا حساب ولا وازع من حقٍ.. أو ضمير إنساني.. وتسوم مواطني تلك الشعوب الذل.. وتستنزف طاقاتهم بكرباج السخرة)..

ووجد نفسه.. يجيب بنفسه عن سؤاله الحائر فيقول:

(لقد فرضوا علينا أن نعمل لصالحهم.. دفعونا إلى التخلي عن إيماننا وحشوا رؤوسنا بأفكارهم.. قضوا على فنوننا وصناعاتنا وأغرقونا بتوافههم.. ودفعونا إلى السخرية من عاداتنا وأزيائنا وتراثنا.. وهم يتباهون بعظمة بلادنا.. وجاذبيتها وسحرها.. الذين لا يستطيعون مقاومته.. ألا يطلقون علي بلادنا التي يتباهون باحتلالها أنها درة تاجهم الملكي.. أليس من العدل أن تعود تلك الدرة لأصحابها الأصليين ؟)

وأدرك غاندي أن تلك هي قضيته الأساسية.. ولا سبيل أمامه سوى العمل الجاد.. فلم يسمح لنفسه علي الإطلاق أن يحذو حذو باقي أقرانه ممن هم في مثل سنه.. وعزف تماماً عن كل مظاهر اللهو وضياع الوقت.. والتزم أكثر.. وأكثر بتدينه ودروسه.. وسعيه إلى الحقيقة والأخلاق.. فأخذ يمعن في تدبر القانون.. وتفسير نصوصه بطريقة تناسب عقلية شعبه.. ويقبل ما يشبع العقل.. ويوحِّد عقله مع دينه.. ويطابقه بما يمليه عليه ضميره.. ومضت حياته في لندن علي نفس الوتيرة.. حتي أنهي دراسته الجامعية.. وحصل علي شهادته في القانون.. ثم حزمّ حقائبه.. وعاد إلي وطنه ..

عودته إلي الهند :

في ١٠يونيو ١٨٩١ حصل غاندي علي إجازة جامعية تخول له العمل كمحام.. فأبحر عائداً إلى مومباي ليعود إلى الهند في يوليو عام ١٨٩١وبعد عودته إلى الهند بحث غاندي عن فرصة عمل مناسبة تسمح له بممارسة المحاماة.. مع المحافظة في الوقت نفسه على المبادئ التي نشأ عليها.. وبعد فترة تم تعيينه كمحام بمحكمة الاستئناف في بومباي.. كانت بداياته صعبة.. زاد من مشقتها فقدانه لوالدته التي توفيت أثناء دراسته في لندن.. بالإضافة لحياءه الشديد واستقامته القصوى.. لذا لم يحقق نجاحاً ملحوظاً في حياته الأولي كمحام.. بالرغم من انضمامه في هذه الفترة لطاقم محاميّ أمير بوربندر.. بعدها بدأت تتكون لديه قناعة خاصة بأن المحاماة ليست طريقاً مضموناً للنجاح.. وعاد من بومباي إلى راجكوت.. فعمل فيها كاتباً للعرائض.. خاضعاً لصلف المسؤولين البريطانيين.



٦.غاندي في جنوب أفريقيا

وفي عام ١٨٩٣ وكان وقتها في الرابعة والعشـرين من عمره توجه غاندي في مأمورية عمل خاص إلى (دربان) في جنوب أفريقيا ليسـوي إحدى القضـايا التي كان أحد طرفيها واحد من أبناء عمومته.. والطرف الثاني كان أحد أثرياء التجار الهنود وكان هناك خلاف تجاري بين الاثنين علي مبلغ كبير من المال تم رفعه لإحدى المحاكم للفصـل فيه هناك.. وفي المحكمة أمره القاضي أن يخلع العمامة التي يلبسها فوق رأسه.. فرفض غاندي خلعها.. وأصرّ علي استكمال مرافعته وهو يلبسها باعتبارها رمزاً قومياً يعتز به.. وتحدي القاضي إن كان هناك نص في الدسـتور.. أو القانون يعطيه الحق في أن يأمره بخلع عمامته.. انتشـرت تلك الواقعة وما حملته من معاني الشـجاعة وعزة النفس في كافة أنحاء جنوب أفريقيا.. وبدأ اسم غاندي يتردد علي ألسنة الجميع..

وفي رحلة أخري بالقطار داخل جنوب أفريقيا لإنهاء بعض الأعمال حيث كان يعمل ممثِّلاً قانونياً لأصحاب شركة تجارية ـ مسلمين ـ في قضية تعويضات عن خسائر تعرضوا لها في بريتوريا.. عاصـمة الترانسـفال في اتحاد جنوب أفريقيا.. حجز غاندي تذكرة بالدرجة الأولى.. فتضـايق أحد البيض من وجود غاندي ـــ الهندي الملون ـ بالقاطرة الخاصة بركاب الدرجة الأولى المخصصة للبيض فقط.. وشعر غاندي بالمهانة والغضب حين أتى هذا الرجل بحراس القطار ليخرجوه من العربة بالقوة.

كانت أوضاع الجالية الهندية هناك بهذا الشكل مما جعله يقرر قبول عرض للعمل قدَّمته له مؤسسة هندية تعمل في ناتال بجنوب إفريقيا.. وسافر بالفعل إلى هناك وكان في نيته البقاء مدة عام واحد فقط.. إلا أن الأمور تطورت ليبقي هناك ما يزيد عن عشـرين عاماً.. ونسـتطيع القول إنه بدأت هناك في جنوب إفريقيا مرحلة كفاحه السلمي في مواجهة تحديات التفرقة العنصرية.. لما كان للوضع هناك من جوانب عنصرية استفزته كثيراً.. وبعد أن أفزعه سوء المعاملة التي تتلقاها الجالية الهندية التي كانت آنذاك تعاني التمييز نفسه الذي يعاني منه سكان البلاد الأصليين من السود.. وهناك بدأ المحامي الشاب الخجول يعيد اكتشاف نفسه.. وعقد العزم على العمل لاستئصال التمييز العرقي محاربته.. وشن حرباً لا هوادة فيها.. أولاً على صعيد العمل السياسي الذي بدأ اسمه يلمع فيه بقوة.. ثم صعيد الجهاد ضد المظالم الاجتماعية.. مطالباً الحكومة الجنوب أفريقية بالاعتراف للهنود بالحدِّ الأدنى من الكرامة الإنسانية والمدنية.. محارباً التمييز بوجوهه القانونية والاقتصادية والاجتماعية..

هنود بريتوريا

كانت حادثة القطار التي أشرنا إليها هي التي تسببت بشكل مباشر في نزع فتيل قنبلة الثورية داخل الزعيم الهندي.. فبعدها مباشـــرةً دعا غاندي إلى عقد أول اجتماع لهنود بريتوريا حمل فيه على نظام التمييز العرقي.. وكانت أصداء دفاعاته عن قضية الهنود المظلومين في الناتال والترانسفال.. قد زادته شـــهرة بشـكل كبير.. وفي عام ١٨٩٦ عاد إلى الهند ليصـطحب زوجته.. وابنيه إلى حيث قرر الإقامة الدائمة وقتها بجنوب أفريقيا.. وفي الهند وجد أصداء ما يفعله في جنوب أفريقيا تسبقه إلي هناك.. ومن وقتها بدأ الشعب الهندي ينظر إليه علي أنه زعيم ثوري.. وطني..

اصــطحب غاندي أســرته العائدة معه من الهند وســكن معهم بولاية «ناتال» الواقعة على المحيط الهندي.. مقيماً في أهم مدنها «دوربان» التي اشتهرت بصناعة السكر والتبغ.. ويتواجد بها العديد من مناجم الفحم في مرتفعاتها الداخلية.. وبدأ غاندي يرتب أوراقه هناك بعد أن اســتقر به تفكيره أن يتفرغ تماماً للدفاع عن حقوق العمال والمزارعين الهنود والبوير العاملين في مزارع ومصانع قصب السكر.. وكان مجتمع العمال في جنوب أفريقيا وقتها منقسماً إلى جماعات مختلفة هم :

- جماعة التجار المسلمين «العرب».
- وجماعة المستخدمين الهندوس .
- الجماعة المسيحية .

وكانت بين هذه الجماعات الثلاث بعض الصـــلات الاجتماعية.. ومع مرور الأيام وتفرغه التام للقضـــية.. اطلع ودرس عن قرب العديد من الحقائق والوقائع المفزعة الخاصـــة بممارســـة التمييز العنصري.. وأيقن أن حكومة جنوب أفريقيا بتشجيعها المستمر للاضطهاد العرقي.. وعملها على تنفيذ إجراءات جائرة لمنع هجرة المزيد من الآسيويين إليها.. وإكراه السكان المقيمين منهم في جنوب إفريقيا على الرحيل عنها.. من خلال فرض ضــرائب باهظة عليهم.. ومطاردتهم من الشــرطة.. إضـــافة إلى أعمال النهب وتدمير المحلات والممتلكات التي تتم تحت ســمعها وبصــرها هي العدو الأول الذي كان يجب علي جميع أبناء تلك الطبقات المقهورة من العمال الهنود والمســتضــعفين من الجاليات الأخرى توحيد صفوفهم للتصدي لما تمارسه ضدهم من قمع.. وإذلال .

وأعلنت حكومة جنوب أفريقيا نيتها إصـــدار تشــريع يحظر حق الاقتراع العام على الهنود.. وكان هؤلاء من الضعف والعجز بحيث لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم.. كما افتقروا إلى القيادة القوية .

وتنبه غاندي لذلك منذ البداية فاتخذ من الفقراء قاعدة شـــعبية ينطلق من خلالها.. وتدرب على الإسـعافات الأولية ليكون قادراً على إسـعاف البسـطاء متي احتاجوا إلي ذلك.. لعلمه أنهم غير قادرين علي مصــاريف العلاج والمسـتشـفيات.. فضــلاً عن كون معظم عيادات.. ومسـتشـفيات جنوب أفريقيا يسيطر عليها البيض الذين كانوا يرفضـون مد يد العلاج لهم.. ويتركونهم فريسـة للأمراض التي كانت غالباً ما تقضي علي حياتهم.

كما هيّأ منـــــزله لاجتماعات رفاقه من أبناء المهنة ومن الساسـة.. حتى إنه كان ينفق من مدخرات أســرته على الأغراض الإنســانية العامة.. وقاده ذلك إلى التخلي عن موكليه الأغنياء.. ورفض إدخال أطفاله المدارس الأوربية حيث كان يحق له ذلك اســتناداً إلى كونه محامياً يترافع أمام المحاكم العليا بموجب القانون المعمول به آنذاك في جنوب أفريقيا.

وكان ذلك الأمر إيذاناً ببدء كفاح غاندي السـلمي.. في مواجهة السـلطة البيضــاء العنصــرية.. وقد مكنته معرفته بالقوانين من البرهنة على عدم شـــرعية قانون الاقتراع العام.. وتمكن من أن يكســـب الجولة مع حكومة البيض هناك.

بدأ غاندي كفاحه السـلمي هناك بتنظيم «المؤتمر الهندي» في الناتال ليدافع عبره عن حقوق العمال الهنود.. وأسـس صـحيفة (الرأي الهندي Indian Opinion) التي صـدرت باللغة الإنجليزية وبثلاث لغات هندية أخرى.. وعام ١٩٠٤ أنشـــأ مســـتعمرة «فينيكس » الزراعية قرب « داربان ».. وهي مستعمرة صـغيرة أسسـها مع عددٍ قليل من أصدقائه الذين شـاركوه أفكاره بأهمية الابتعاد عن صـخب المدن وتلوثها.. وعن طمع وكراهية وحقد البشـر في المدن.. فانسـحب الهنود من المدن الرئيسـية.. مما أصاب الأعمال الصناعية بالشلل .

المرسوم الآسيوى

وهناك اعتقل غاندي أكثر من مرة.. ولكن في عام ١٩٠٦ بعد أن أصـدرت حكومة إقليم الترانسـفال قانوناً جديداً سـمي بالقانون الآسـيوي الجديد.. أو«المرسـوم الآسـيوي».. وهو قانون يفرض على من يريد من الهنود من الرجال والنســاء والأطفال فوق ســن الثامنة.. الإقامة في مدينة ترانســفال أن يعيد تسـجيل أسـماءهم وبصـماتهم من جديد في سـجلات خاصــة.. يحصـلون بذلك على إقامة جديدة.. ومن يخالف القانون يكون مذنباً ويتعرض للسـجن أو الترحيل.. ووصــلت العنصــرية إلى حد اقتحام قوات البوليس منازل الهنود للتفتيش.. فاندلعت مظاهرات في جوهانسـبرج.. وتعاطف الصـينيون مع الهنود وانضموا إلى حركتهم.. وامتلأت السجون بالمعتقلين.. فأرسل غاندي وفداً من ممثلي الهنود في جنوب إفريقيا إلى إنجلترا يحمل وثيقة بها ثلاثة اقتراحات ضــد هذا القانون.. واعتبر هذه المهمة تكليفاً.. وهذه الشروط هي :

- على من هم مســـتعدون للمقاومة ضـــد القانون.. في حال تنفيذه.. أن يجددوا تعهدهم باســـتمرار المقاومة ..
- ينبغي جمع تبرعات لتغطية نفقات سفر الوفد وإقامته في لندن ..
- يجب أن يكون عدد الوفد ثابتاً ..

أى أن الوفد لم يكن يحمل في الوثيقة التي معه أية بوادر تفاوضـــية.. إنما كان بمثابة إعلان موقف.. وتمسك بسابق رأيهم في رفض هذا القانون..

ولأن إقليم (الترانسفال) هو مستعمرة تابعة للتاج البريطاني.. فقد التقى الوفد بوزير المستعمرات البريطاني.. فأظهر الوزير الإنجليزي عدم رضـــاه عن القانون في العلن.. في حين وعد ســـراً حكومة إقليم الترانســـفال بأن بريطانيا ســـتمنح الإقليم الحكم الذاتي إذا ما نفذ القانون.. فألقت قوات الشـــرطة القبض علي غاندي . وتم اعتقاله.. وحبس لمدة شهرين تم فيهما تطبيق القانون بالقوة.. ثم أطلق سراحه بعد أن وافق مرغماً على التســـجيل الطوعي.. وأثناء اعتقاله قرأ في الســـجن مقالاً كتبه الفيلســـوف الترانســـندنتالي الأمريكي هنري دافيد ثورو[٨] تتحدث عن العصـــيان المدني وأثره في تشـــتيت قوي المســـتعمر الظالم.. وأثرّ فيه المقال تأثيراً قوياً وعززّ قناعته بضـــرورة رفض الانصـــياع للنظم الاســـتعمارية الجائرة.. كما بدأ يسـتعيد ما قرأه أيضـــاً للكاتب والروائي الروســـي العظيم (تولســـتوي) ومقالاته التي كان يدعو فيها إلى المقاومة باللاعنف للسلطة الفاسدة.. كذلك كتابات المصلح الإنجليزي (جون رَسْـــكن) التي حضّ فيها علي التمســـك بالعمل اليدوي والمناداة بالعودة إلى الروح الجماعية والحياة البسيطة .

مزرعة تولستوي:

من هذه المنطلقات قرر غاندي إنشاء جمعية تعاونية مؤلفة من المقاوِمين المدنيين.. أطلق عليها اسم «مزرعة تولســـتوي».. تيمُّناً بمعلِّمه الكبير.. مســـتبدلاً بثيابه الأوروبية زياً هندياً.. وهناك عكف على القيام بأشغال يدوية من أجل العمال غير المأجورين من الطوائف الخارجية وشجَّع زوجته كاستورباي على القيام بذلك أيضاً..

نذر العفة :

وفي عام ١٩٠٦ نذر وزوجَه العفة بعد أن رُزِقا أربعة أبناء.. عملاً بنهج طريقة البرهامانية الذي أشرنا من قبل لشدة إيمانه به.. و(نذر العفة) وهو تعبير المقصود به البعد التام عن ممارسة الجنس.. أو

(٨) كاتب وفيلسوف أمريكي شهير .. عاش ومات بين عامي (١٨١٧-١٨٦٢) وكان يؤمن تماماً بما أسماه في مؤلفاته بمناهضة العنف في بناء الدول .. وصناعة الشعوب ..

حتى التفكير فيه.. ونصـوصـها التي تمنع المعاشـرة الزوجية.. واتخذ منها وسـيلة لضـبط النسـل وللطهارة الروحية.. وبدأ أيضاً يحيا حياة فقر إرادي.

تعرض غاندي في جنوب أفريقيا ــ مراراً وتكرارً ــ للضرب والسجِن.. بل وأوشك أن يُعدَم إعداماً تعسـفياً ..من فرط تأثيره علي الحياة السـياسـية هناك.. وما أحدثه بها من ثورة.. ومن وراءه سـار كل أبناء الجالية الهندية ملتزمين بوصـاياه.. وتعاليمه في العصـيان المدني.. والثورة السلمية ..مما اضـطر الحكومة إلى رفع مظالم كثيرة عن رقاب الهنود..

وكان من إنجازاته القانونية الأخرى هناك إصـــدار قانون يرخِّص الزيجات الهندية (بعد أن كانت الزيجات المسيحية وحدها مرخَّصة).. وإلغاء الضرائب التعسفية المفروضة على العمال الهنود المتعاقدين للعمل هناك.. ومحاربة مشروع قانون يحرم الهنود من حق التصـويت – مؤسِّساً بذلك عام ١٨٩٤ مؤتمر ناتال الهندي الهادف إلى الدفاع عن حقوق العمال الهنود – وكذلك مشـــاريع القوانين الخاصـــة بتحديد الهجرة.. صـــحيح أنه حصـــل للهنود من الجنرال سْـمَتْس على إلغاء العديد من القوانين الجائرة.. لكن أهم إنجازاته ـــــ إطلاقاً ـــــ كانت إعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة.. وتنمية إحسـاسـهم بكرامتهم الإنسانية.. وتخليصهم من عقدتي الخوف والنقص .

وعلى التوازي.. اهتم غاندي بالتهذيب المعنوي والخلقي – بادئاً بنفســـه.. لقد كان يعتبر أن أحد أســـباب العداء والنظرة الدونية اللذين يكنُّهما البيض للهنود هو نوع من الصـــفاقة وعدم الاكتراث بالهندام.. وحتى القذارة البدنية.. لدى قســـم من الجالية الهندية.. من هنا بدأ اهتمامه الشـــديد بالطهارة والنظـافـة.. خلقيـة كـانـت أم بـدنيـة (لقد قرَّب طريقـة البيض التمييزيـة في معـاملـة الهنود من طريقـة الهندوس الطائفيين في معاملة المنبوذين).

فروض الواجب

على الرغم من مناوءته للحكومة البريطانية هناك.. إلا أنه لم يستنكف عن مناصرتها وقت الأزمات والشـــدائد وهى واحدة من أكثر المآخذ التي يـأخذهـا أعداء غـاندى عليـه.. إذ نظَّم مجموعـات من المتطوعين الهنود خدموا كممرضين إبان الحرب ضد البوير والحرب العالمية الثانية – لأنه كان يرى أن الهنود لن تحقق لهم مطالبهم بحقوق الرعايا البريطانيين ما لم يتحمَّلوا واجباتهم ومسـؤولياتهم كاملة كمواطنين. وقد كتب بخصوص ما أسماه بفروض الواجب قائلاً :

«المصــدر الحقيقي للحقوق كلِّها هو الواجب.. إذا قام كل منا بواجبه فإن الحقوق ســوف تتوطد من تلقاء ذاتها.. العمل هو الواجب.. والحق هو ثمرة هذا الواجب».

القبض عليه ثانيةً

لكنهم عادوا للقبض عليه مرة أخرى عام ١٩٠٨.. واقتيد إلى قلعة جوهانسبرج بملابس السجن.. ووصلت أنباء الاضطرابات الواسعة والاجتماعات الجماهيرية والمسيرات السلمية إلى الهند.. ففرضت على نائب الملك فيها اللورد «هاربنك» تقديم احتجاج إلى حكومة جنوب أفريقيا لمعاملتها المشينة للهنود ..

وجد غاندي ومن وراؤه من التابعين له.. والمؤمنون بفكره أنفسهم هدفاً لهراوات الشرطة التي عملت على تفتيت إدارة المقهورين من خلال تكسير العظام.

واستمر نضال غاندي على هذا النحو طوال تلك سنوات إقامته بجنوب أفريقيا.. ما بين شدٍ.. وجذب.. وقطع معه الألوف المشوار حتى نهايته.. فألقوا في غياهب السجون.. وتعرضوا للجوع والجلد والمهانة وطلقات الرصاص التي كانت تحصد أرواحهم من وقتٍ.. لآخر.

التفاوض مع غاندي :

حتى رأت السلطات هناك أن تقلل من تعسفها.. فعرضت على غاندي تسوية الموقف بين الجانبين.. ووافق غاندي علي التسوية.. وغادر بعدها جنوب أفريقيا متوجهاً إلى الهند في يوليو ١٩١٥.. بعد أن حققت حركته التي تسلحت وفقاً لمناداته بسياسة (اللا عنف).. وضمنت للهنود في جنوب أفريقيا حقوقهم في العيش حياة كريمة.. وإعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة وتخليصهم من عقد الخوف والنقص ورفع مستواهم الأخلاقي.

وتعتبر الفترة التي قضاها غاندي بجنوب أفريقيا (١٨٩٣ ــ ١٩١٥) من أهم مراحل تطوره الفكري والسياسي حيث أتاحت له الفرصة لتعميق معارفه وثقافاته والاطلاع على ديانات وعقائد مختلفة.. واختبر أسلوبه الذي يؤمن به في ممارسة العمل السياسي.. والذي أثبت فاعليته وتأثيره ضد الاستعمار البريطاني فيما بعد عقب عودته للهند.. واستمرت مدة إقامته هناك ٢٢ عاماً..



٧. عودة غاندي للهند

عاد غاندي إلى الهند بشــكل نهائي عام ١٩١٥.. ووقتها كان الفقر المدقع متفشــياً بين الهنود بشــكل وبائي.. وكان البريطانيون يحكمون الهند بالحديد والنار.. ويجمعون ضــرائب تتجاوز كثيراً قدرة الناس على دفعها.. يحاربون الصـناعة الوطنية هناك.. ويسـتخدمون القوة للسـيطرة عليهم.

وفي يوم عودته منحته الجماهير الهندية لقب «المهاتما » أي الروح العظيم.. وفي غضــون ســنوات قليلة من العمل الوطني أصــبح هو الزعيم الأكثر شــعبية.. وبعث الحياة في حركة المقاومة الوطنية مرة أخرى بما كان له من دور فعال في جمع شــتات الهنود ودفعهم من أجل هدف واحد.. فقام بشــحذ هممهم من أجل هدف قوي وهو تحرير وطنهم وإيجاد حل لمشــاكلهم ومعاناتهم.. فذابوا جميعاً في بوتقة واحدة على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم وكان هذا في حد ذاته أول طريق النجاح في مشــوار غاندي أنه حقق الوحدة بين الهنود على الرغم من الاختلافات بينهم.. وركز عمله العام على النضـال ضـد الظلم الاجتماعي من جهة.. وضـد الاسـتعمار من جهة أخرى.. واهتم بشـكل خاص بمشـاكل العمال والفلاحين والمنبوذين.. واعتبر الفئة الأخيرة التي سـماها(أبناء الله) سـبة في جبين الهند.. ولا تليق بأمة تسـعى لتحقيق الحرية والاسـتقلال والخلاص من الظلم .

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م) قاتل الشعب الهندي إلى جانب البريطانيين حينما وعد الإنجليز الشعب الهندي بمنحه الاستقلال إذا ساندوهم في الحرب.. وانتصروا فيها.. إلا أن البريطانيين نكثوا عهودهم بعد انتهاء الحرب وانتصــــار الحلفاء.. ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالمذابح البشعة قمعاً للتجمعات الهندية (السلمية) الباحثة عن التحرر.

مذبحة أمري ستار :

ثم جاءت مذبحة (أمري ســـتار) في ١٣ إبريل ١٩١٩ لتؤكد طغيان وفســـاد الحكم البريطاني الإمبراطوري.. فقد أصدر أحد الضباط أوامره إلى رجاله بإطلاق النار عشوائيًا على تجمع غير مسلح من المواطنين الهنود.. مما أدى إلى سقوط ما يقرب من (٤٠٠) قتيل.. ومئات الجرحي..

كان اسـم غاندي في هذا التوقيت قد بدأ يطفو على سـطح الأحداث بقوة.. باعتباره زعيماً شـعبياً اقتص لحقوق وكرامة المواطن الهندي خارج بلاده.. وجاء الوقت ليلعب نفس الدور.. مع نفس المحتل.. لكن في وطنه هو هذه المرة.. وزادت تلك المذبحة من تصميم غاندي على مجابهة المحتل.. والتصدي لممارساته القمعية بطريقته الخاصة.. واقتنع (غاندي) بعدم جدوى الحوار فقط.. وضرورة بدء العمل المباشر معتمداً

بذلك على مقاطعة البضـائع البريطانية.. والاحتجاجات السـلمية.. التي تحولت فيما بعد إلى ثورة شـعبية عارمة بسبب قمع القوات البريطانية لهذه المظاهرات السلمية.

وبالطبع كانت الفكرة الرئيسـية التي تسـيطر على عقلية غاندي هي فكرة عدم العنف وكان يرى أن السبب الرئيسـي في قوة البريطانيين في المنطقة هو اعتمادهم بشكل أساسـي على تعاون جميع طبقات الشـعب معهم.. فإذا تم سـحب هذا التعاون فلن تسـتطيع الحكومة البريطانية الصـمود كثيراً في الهند.. ولكن كان يلزم لتحقيق هذا الهدف تكاتف جميع الطبقات وتفهمهم لذلك.. وأثناء هذا كان يوجد موقف إســلامي معارض بشــدة للحكومة البريطانية والتي كانت تســعى من أجل تقســيم تركيا بين الحلفاء الغربيين وتفكيك الخلافة الإسـلامية وهو الأمر الذي اسـتغله غاندي حيث قام بالانضـمام والتحالف مع الزعماء المطالبين بالمحافظة على الخلافة وتكون من وراء هذا التحالف حركة شـعبية قوية مناهضــة للاحتلال البريطاني وكان ذلك في الفترة ما بين ١٩٢٠ – ١٩٢٤م .

ولقد بدأت هذه الحركة التي تزعمها غاندي في الانتشــار في أنحاء الهند وانتقلت إلى مرحلة جديدة من العمل السـياسـي الجماهيري وذلك نظراً لانتشـار المبادئ التي تدعو إلى الحرية في العالم بأسـره.. وأيضــاً نظراً للفقر والمعاناة التي عاشــها الهنود من العمال والفلاحين فبدأت عملية تأســيس لنقابات العمال وعمل غاندي على الاهتمام بالفلاحين فســعى جاهداً من أجل محاولة تخفيض الضــرائب التي تثقل كاهلهم.

عام ١٩٢٠ بدأ غاندي أولاً بتطبيق برنامج «النسج والحياكة اليدويان».. وهي في طليعة النشـاطات التي حضَّ غاندي أتباعَه عليها لنســج ثيابهم بأنفســهم.. بحيث لا يعتمدون على القطن المســتورَد من بريطانيا.. التي كانت حينئذٍ تشتري القطن الهندي بسعر زهيد.. ثم يحلجونه ويصنعون منه في إنجلترا ثياباً يعاد بيعها إلى الهنود بأسعار أغلى بكثير.. وكان مؤمنا أن ذلك سيؤدي إلى:

- دعم الحرية الاقتصادية عن طريق الوصول لدرجة الاكتفاء الذاتي في قطاع صناعة الملابس.
- تطوير الحرية الاجتماعية بتأكيد كرامة العمل اليدوي واليد العاملة.
- تحقيق الحرية السـياسـية بتحدي صـناعة الملبوسـات البريطانية وتحضـير الشـعب الهندي للحكم الذاتي.



غاندي ودولاب العزل

وخصص غاندي أربع ساعات يومياً لينسج بنفسه قماشاً على مغزل يدوي حتى يصير قدوة للناس.. ليستخدموا هذا القماش البسيط المغزول داخل البلاد وبأيدي أبنائها بدلاً من شرائهم المغازل البريطانية التي أودت بحياة صـناعة النسـيج في الهند.. وبالفعل جاء الهنود والأغنياء والتجار بما كان لديهم من المنسـوجات الواردة من الخارج فأشـعلوا فيها النار.. وفي مدينة «بومباي» وحدها أكلت ألسـنة اللهب مائة وخمسين ألف ثوب من القماش المستورد.

وهكذا دارت مغازل القطن اليدوية في كل بيت وقرية ومدينة على امتداد مساحة الهند.. لتوفر البديل للمنتجات الأجنبية.. وكانت المحصـلة أن شـعر الهنود لأول مرة بسـريان روح الكبرياء والعزة في نفوسـهم.. وهو ما كان يسـعى إليه غاندي تحديداً.. وبالتدريج بدأت المحالج والمغازل البريطانية تواجه شـبح الإفلاس مع هبوط صـادراتها إلى الهند.. وبذلك اسـتطاع غاندي أن يوجِد واقعاً جديداً.. وأن يفلح في تغيير ثوابت سـياسـية بحيث اضـطُر البريطانيين إما إلى القيام بقمع جماهيري عنيف وإما إلى التفاوض.

ببعدها بعشـرة أعوام كاملة عام ١٩٣٠ قاد غاندي مئات من أتباعه سـيراً على الأقدام في مسـيرة تمثل أول حركة عصـيان مدني للعمل على إلغاء قانون الملح الذي رفع ضـريبة إنتاجه لصـالح التجار الإنجليز.. وطالب غاندي الحاكم برفع هذه المظالم.. وإلا سـيخرج في مسـيرة يمكن أن تعرض أمن الدولة للخطر.. ولما أهملت الحكومة البريطانية إنذار غاندي ولم تعره اهتمامًا.. قام غاندي الذي كان قد بلغ وقتها السـتين من عمره ومعه ٧٩ فرداً بمسـيرة قطعوا فيها مسـافة طولها ٣٢٢ كيلومتراً من منزل غاندي إلى البحر لاستخراج الملح.. وكان ذلك في يوم ١٢ مارس ١٩٣٠.



واستمرت المسيرة لبضعة أسابيع متواصلة بلا راحة سوي يوم الاثنين من كل أسبوع.. وذلك من أجل هدف محدد.. وهو استخراج الملح من مياه البحر احتجاجاً على قانون أصدرته الحكومة وقضى بمعاقبة كل شخص يوجد بحوزته ملح غير مباع عن طريق الحكومة البريطانية التي كانت هي المسئولة عن استخراج الملح في الهند وبيعه.. وكانت تحقق من وراء ذلك أرباحاً طائلة.. ورفع غاندي شعار أن الملح ملك للهند.. ومن ثم للشعب الهندي.. وإنه سيعمد إلى خرق القانون المتعلق بالملح.

.. وسرعان ما انتشر خبر هذه المسيرة في كل أرجاء الهند.. وطوال ٢٤ يوماً.. تابع شعب الهند وبقية العالم تلك المسيرة التي كانت تعد الأولي من نوعها.. حيث صمم الهنود على استخراج الملح من البحر.. ومقاطعة الملح الذي تبيعه الحكومة الإنجليزية.. تطبيقاً لنصيحة غاندي صاحب وأول منفذ لتلك الفكرة الذي سجن بسببها لمدة عام كامل .

وفي البداية.. كان غاندي قد طلب أن يناقش المسألة مع رئيس الحكومة البريطانية في الهند.. وهو نائب الملك.. ورفض نائب الملك ذلك اعتقاداً منه أن الموضوع ليس بذي أهمية حتى يضيع فيه وقته .

وفي السادس من شهر أبريل.. أي بعد خمسة وعشرين يوماً من بدء المسيرة.. ووسط الآلاف من أبناء الهند.. والمئات من الأجانب.. وصل غاندي إلي شاطئ البحر.. حيث النقطة التي حددها.. ومشي داخل حدود الماء.. وغرف بيده حفنة من الملح المكوم علي الشاطئ.. لقد كان هذا العمل.. الذي يدل على التحدي.. إشارة موجهة إلى الأمة.. وعلى امتداد سواحل الهند.. بدأ الناس باستخراج الملح بطريقة اعتبرتها بريطانيا وقتها أنها غير قانونية.. وتم إلقاء القبض علي غاندي وإيداعه السجن.. بعدها بدأ بعض أتباعه بإرسال الملح الذي تم جمعه إلى كل أنحاء الهند حيث كان يباع بالمزاد لصالح حزب المؤتمر.

بيع الملح :

ومع كل مزاد كانت اعتقالات جديدة تتم حتى امتلأت السجون بآلاف السجناء.. وقد قال هندي من طائفة راقية جواباً على سؤال مراسل أجنبي سأله عما إذا لم يكن شخصٌ في منزلته الاجتماعية يشعر بالحرج من مواجهة السجن: «بالطبع لا.. فإن خيرة الناس في السجن » ..

وكتب غاندي قائلاً : « إنني أطلب تعاطف العالم في هذه المعركة الدائرة بين الحق والقوة » وبعد شهر.. قُبض على غاندي وعلى عشرات الآلاف من الهنود.. وأُودعوا السجن..

وفي النهاية تم التوصل إلى اتفاق عرف (بمعاهدة دلهي) وذلك في عام ١٩٣١م.. وأرغمت حكومة الاحتلال علي الرضوخ لمطالب غاندي.. بعد أن عمت الفوضى في كل مكان احتجاجاً علي اعتقاله.. وسجنه الذي استمر لمدة عام كامل..

وما بين مرحلة الغزل.. ومسيرة الملح قام غاندي بكل ما يمكنه القيام به من تحفيز.. واستثارة للهمم الوطنية في البلاد من أجل توحيد الكل في جبهة واحدة.. والعمل كرجلٍ واحد ضد الاستعمار البريطاني للبلاد.. وبدأ بالتقرب إلى جمعية إنقاذ الخلافة.. وطرح عليهم فكرة التعاون مع حزب المؤتمر الوطني الهندي.. فرحب المسلمون بذلك.. ولما عُقِدَ أول اجتماع بين الطرفين.. طرح المسلمون شعار استقلال الهند عن بريطانيا.. بدلاً عن فكرة إصلاح حالة الهند التي كانت شعار المؤتمر الوطني.. لكن (غاندي) عارض هذا المقترح.. وفي عام (١٩٢١م) عقد الطرفان اجتماعاً مهمًا تمكن فيه المسلمون من فرض شعار الاستقلال عن بريطانيا وقاموا بتشكيل حكومة وطنية لإدارة البلاد.. وفي عام ١٩٢٢ قاد غاندي حركة عصيان مدني صعدت من الغضب الشعبي الذي وصل في بعض الأحيان إلى صدام بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية.. مما دفعه إلى إيقاف هذه الحركة.. ورغم ذلك حكمت عليه السلطات البريطانية بالسجن ست سنوات.. ثم عادت وأفرجت عنه في عام ١٩٢٤.

هذا التطور الخطير لم تكن بريطانيا لتسمح له بإفساد فرحتها بإسقاط الدولة العثمانية وتقسيم العالم الإسلامي.. لذا فقد قام (ريدينج) الحاكم البريطاني للهند بالاجتماع مع غاندي وقال له : (إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند هم المسلمون.. وأهدافها بأيدي زعمائهم.. ولو أجبنا مطالبكم.. وسلمنا لكم مقاليد الحكم.. صارت البلاد للمسلمين.. وأن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولاً لكسر شوكة المسلمين.. بالتعاون مع بريطانيا.. وحينئذ لن تتمهل بريطانيا في الاعتراف لكم بالاستقلال.. وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إليكم).

القبض على الزعماء المسلمين :

وللأسف بناء على التنسيق والتفاهم الذي تم بين (ريدينج) و (غاندي) قامت بريطانيا بالقبض على الزعماء المسلمين المنادين بالاستقلال.. فأصبح الطريق ممهداً أمام (غاندي) الذي طلب من هيئة المؤتمر الإسلامي الهندوسي أن تسلم له مقاليد الأمور بصفة مؤقتة نظراً لقبض بريطانيا على الزعماء المسلمين.. وعندما عقد أول اجتماع برئاسة (غاندي) نفذ ما تم الاتفاق عليه مع الحاكم البريطاني (ريدينج) وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لاستقلال الهند..

وفي الفترة من (١٩٢١ــــ ١٩٤٨م) طبقت بريطانيا في الهند ما طبقته في فلسطين مع الصهاينة.. حيث قامت بتسليح الهندوس وتدريبهم.. والتنسيق معهم لإقامة المذابح للمسلمين..

صيام حتى الموت

ومن المواقف المهمة التي اتخذها غاندي نذكر قيامه باتخاذ قرار بالصيام حتى الموت في عام ١٩٣٢ وذلك كنوع من الاحتجاج على مشروع يقوم بالتمييز في الانتخابات ضد المنبوذين من الهنود.. وهو الأمر الذي دعا الزعماء السياسيين والدينيين للتدخل من أجل إلغاء نظام التمييز الانتخابي وعرفت « باتفاقية بونا ».

كان غاندي يتعامل مع فلاحين يفتقرون للتعليم الأساسي.. وتدابير الرعاية الصحية.. كذلك كانوا يفتقرون إلى فهم معني الثورة علي الاحتلال بما ركنوا إليه طوال تاريخهم من خنوع.. واستسلام للأمر الواقع.. وبما فرضته عليهم الطبيعة الهندية للتكوين الإنساني من جنوح إلي المسالمة.. بمعني مباشر كانوا كشعب يفتقرون تماماً إلي أية سوابق تاريخية من العمل الثوري الجماعي.. فأَصرَّ غاندي على حق التعليم لكل الشعب.. ومحو أمية الكبار.. وتعميم الوعي والرعاية الصحية.. كل هذا على مستوى الريف.. وتعظيم إحساس القرويين بـ «العزَّة» والكرامة الوطنية..

وفي عام ١٩٤٠ عاد إلى قيادة حملات العصيان المدني مرةً أخرى.. فأطلق حملة جديدة احتجاجاً على إعلان بريطانيا كون الهند دولة محاربة لجيوش المحور دون أن تنال استقلالها.. واستمر هذا العصيان حتى عام ١٩٤١ كانت بريطانيا خلالها مشغولة بالحرب العالمية الثانية ويهمها استتباب أوضاع الهند حتى تكون عوناً لها في الحرب..

وتعاظمت هذه الروح الوطنية فلجأ الهنود في مقاطعتهم السلمية للمستعمر إلى أساليب كثيرة.. منها الانقطاع عن العمل في مؤسسات المستعمر.. والامتناع عن استخدام أوعيته الاقتصادية من بنوك وشركات ومقاطعة مناسباته واحتفالاته.. ورد ما حصلوا عليه منه من أوسمة وشهادات ومكافآت.. وهجر مدارسه ومعاهده ومراكزه.. بالإضافة إلى تنظيم المسيرات الصامتة.. ورفع الأعلام السوداء على المباني.. وتشكيل لجان جمع التبرعات لدعم المحتاجين والمتضررين من الانقطاع عن العمل في دوائر المستعمر.. واتباع متطلبات اقتصاد الحرب من تقشف ونبذ للبذخ.

كما أعلن المهاتما غاندي رفضه أن يحلق ذقنه بشفرات حلاقة بريطانية.. أو أجنبية.. فترك ذقنه حتى حلقها بشفرات مصنوعة في بلاده ..

ويضيف غاندي إلى منهجه محاورات ذات أهمية خاصة.. فيقول: (يتهمونني أني ألعب لعبة مزدوجة مستغلاً الاضطراب الحالي لترويج أفكاري.. والقيام بدعاية دينية على حساب مصلحة الهند.. وفي إمكاني التأكيد فقط.. جواباً على كل ذلك.. بأن خطتي (الساتيا جراها) هي فوق كل هذه الافتراضات.. إنها لا تحتفظ بشيء ولا تخفي شيئاً.. ولا يجوز إخافة الشعب الهندي باقتطاع فقرات من خطاباتي لا علاقة لها بمشكلة الهند الرئيسية.. وأخيراً.. ليعلم الجميع أن المبادئ التي أعرضها هنا لاستقلالنا قد أوقفت التردي الأخلاقي الذي كان يسود بين هنود جنوب أفريقيا.. لنتذكر دائماً أن الشجرة لا تنمو في يوم واحد ..

وإزاء الخطر الياباني المحدق حاولت السلطات البريطانية المصالحة مع حركة الاستقلال في الهند.. فأرسلت عام ١٩٤٢ بعثة عرفت باسم «بعثة كريبس» للتفاهم مع قيادات الحركة.. لكنها فشلت في مسعاها.. وعلى أثر ذلك قبل غاندي في عام ١٩٤٣ ولأول مرة فكرة دخول الهند في حرب شاملة مع بريطانيا ضد دول المحور على أمل نيل استقلالها بعد ذلك ..

استقالة غاندي من حزب المؤتمر:

وفي عام ١٩٣٤قرر غاندي الاستقالة من حزب المؤتمر.. والتفرغ التام لوضع حد لما يعانيه الشعب الهندي خاصةً في الريف من مشكلات اقتصادية.. لكنه لم ينفصل كلياً عن الحزب.. فقد عاد عام ١٩٣٧ ليقف بجوار قياداته ويشجعهم علي المشاركة في الانتخابات معتبراً أن دستور عام ١٩٣٥ يشكل ضمانة كافية وحداً أدنى من المصداقية والحياد ..

(اتركوا الهند وأنتم أسياد)

بدأت الهند تتقدم بخطي ثابتة نحو حكمها الذاتي.. لاسيما بعد مشاركتها في الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ – ١٩٤٥م) إلى جانب بريطانيا.. وكانت الحكومة البريطانية قد وعدت الهند بالاستقلال على أن تكون الهند محمية مستقلة في الكومنولث البريطاني.. فرفض الهنود هذا العرض.. وتابعوا نضالهم السلمي من أجل تحرير الهند بقيادة أعمال العصيان المدني.. وبمقاطعة القرارات التي اعتبرها جائرة بحق الشعب.. وخاطب غاندي الإنجليز بجملته الشهيرة : (اتركوا الهند وأنتم أسياد).. لكن هذا الخطاب لم يعجب السلطات البريطانية فشنت حملة اعتقالات ومارست ألواناً من القمع العنيف كان غاندي نفسه من ضحاياه هو والزعيمان الآخران جناح.. ونهرو.. وظلوا معتقلين خلف قضبان السجن ولم يفرج عنهم إلا في عام ١٩٤٤عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية.. ثم عادت مفاوضات الاستقلال بين الهنود والحكومة البريطانية.. إلا أنها تعقدت بسبب مطالبة مسلمي الهند بدولة مستقلة.

بين الاستقلال.. والخوف من التقسيم

وبانتهاء عام ١٩٤٤ وبداية عام ١٩٤٥ اقتربت الهند من الاستقلال وتزايدت المخاوف من الدعوات الانفصالية الهادفة إلى تقسيمها إلى دولتين بين المسلمين والهندوس.. وحاول غاندي إقناع محمد علي جناح الذي كان على رأس الداعين إلى هذا الانفصال بالعدول عن توجهاته لكنه فشل وأعلنت بريطانيا سحب آخر جندي إنجليزي من الهند سنة ١٩٤٧م .

تقسيم الهند :

وفي ١٦ أغسطس من عام ١٩٤٧ أُعلِنَّ تقسيم الهند.. فسادت الاضطرابات الدينية عموم البلاد.. وبلغت من العنف حداً تجاوز كل التوقعات.. فسقط في (كلكتا) وحدها ما يزيد عن خمسة آلاف قتيل.. وقد تألم غاندي لهذه الأحداث واعتبرها كارثة وطنية.. كما زاد من ألمه تصاعد حدة التوتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير وسقوط العديد من القتلى في الاشتباكات المسلحة التي نشبت بينهما عام ١٩٤٧ واستمرت حتي العام التالي.. وأخذ غاندي يدعو إلى إعادة الوحدة الوطنية بين الهنود والمسلمين.. طالباً بشكل خاص من الأكثرية الهندوسية احترام حقوق الأقلية المسلمة .

ما بعد الاستقلال:

فبمجرد إعلان بريطانيا عزمها على نقل مقاليد الحكم إلى الهنود.. خشي المسلمون استئثار الهندوس بالحكومة على حسابهم فطالبوا بدولة مستقلة.. وقد عارض حزب «المؤتمر القومي الهندي» تقسيم البلاد.. لكن لم يكن ثمة خيار آخر.. وكان المسلمون قد اتفقوا على تسمية دولتهم المرتقبة بـ «باكستان» التي تعني باللغة الأردية «أرض الأطهار».

وكان « محمد علي جناح » هو صـاحب الدور البارز في تأسـيس باكسـتان كدولة للمسـلمين في الهند.. وكان جناح قد حاول التوفيق بين المسـلمين والهندوس والأقليات الأخرى داخل أُطر الدولة الموحدة.. فنشر بيانه الشهير الذي يتكون من ١٤ نقطة لضمان حقوق الأقليات – خصوصاً المسلمين – داخل نطاق الحكومة الفيدرالية.. لكن إحدى اللجان التي كان يرأسـها جواهر لال نهرو رفضت منح المسلمين حقوقهم في المجالس التشريعية.

وقد اعتقد بعض المسلمين أن «جناح » لم يكن حازماً في المطالبة بحقوقهم.. مما جعل إقليم البنجاب يعترض على قيادته.. ويقرر الانفصال.

جناح فى منفاه الاختياري :

شـعر « جناح » بالإحباط نتيجة ذلك ولجأ إلى منفاه الاختياري في لندن عام ١٩٣١م لكنه عاد بعد سـنتين إلى البلاد (بطلب من لياقت علي خان.. أحد قادة حزب الرابطة) بعد تغير المناخ السـياسـي.. واقتراب الهندوس من مشاركة سياسية أكبر في ظل الاستعمار.. وفي عام ١٩٣٧م فاز حزب المؤتمر في الانتخابات.. فرأى جناح أنه خسر – وحزبه - الزعامة إلى جانب قطبي الزعامة الهندوسية (غاندي ونهرو) فكافح لتحويل حزب الرابطة من جمعية ضـعيفة إلى حركة سياسـية فعالة.. وقد تبنت الرابطة الإسلامية في عام ١٩٤٠م في (لاهور) قراراً ينادي بتأسيس باكستان بشكل رسمي.

ومما يذكر أن « جناح » اسـتجاب لمشـورة بعض أصـدقائه بالتخلي عن الزى الأوروبي وارتداء الزى الوطني كي يبتعد عن انتقادات الجماهير التي ترى فيه سمة القيادة الوطنية لبلادها الناشئة..

الدين أساس التقسيم :

أدرك اللورد (مونتباتن) نائب الملك في الهند.. و(جواهر لال نهرو) ضـرورة التسليم بأمر التقسيم على أسس دينية وعرقية وثقافية خصوصاً بعد وقوع مصادمات عنيفة بين المسلمين والهندوس.

ويبدو أن موافقة بريطانيا على التقسيم كان لأهداف أُخر جرياً على عادة المستعمرين - وخصوصاً البريطانيين - الذين ما أن يخرجوا من مستعمرة إلا وقد زرعوا بذور الفرقة والخلاف وراءهم.

الجزء قبل الكل :

ومن المفارقات الغريبة والمقصـودة.. حصـول الجزء (باكسـتان) على الاسـتقلال قبل الكل (الهند) حيث استقلت باكستان في ١٤ أغسطس ١٩٤٧م وأصبح القائد محمد على جناح.. حاكماً عاماً لباكستان واختيرت كراتشي عاصمة لها.. بينما حصلت الهند على استقلالها في اليوم التالي وأصبح جواهر لال نهرو أول رئيس لوزرائها واختيرت دلهي الجديدة عاصمة لها.

وقد تكونت باكســتان من جزأين (باكســتان الغربية) و(باكســتان الشــرقية).. يفصــل بينهما الجزء الشمالي للهند.

وكان التقسيم السياسي والجغرافي لشبه القارة الهندية معقداً.. لأنه على أساس ديني من ناحية.. ولم يؤخذ فيه بتوازن القوى البشرية والاقتصادية والاستراتيجية من ناحية أخرى.

هجرة معاكسة :

وبدأت موجات هجرة معاكســـة بين البلدين.. حيث هاجر حوالي ســـتة ملايين مســـلم من الهند إلى باكســـتان.. وهاجر الهندوس (حوالي ٢ مليون) من باكســـتان إلى الهند.. بينما لقي الألوف حتفهم على الحدود في صراعات عنيفة بين الطرفين فأصبحت باكستان والهند اتحادين منفصلين متعددي الإثنيات والأديان.

الحروب الباكستانية الهندية:

الصــراع بين باكسـتان والهند اسـتمرار لصــراعات سـابقة.. زاد في الحدة والتوتر بسـبب العوامل السياسية التي طرأت بعد التقسيم.

فقامت ثلاثة حروب بين البلدين.. اثنان منها بسبب «إقليم كشمير» الذي يعود النزاع بشأنه إلى سنة التقسيم (١٩٤٧م).. حيث تبلغ نسبة المسلمين في كشمير حوالي ٨٠% من سكانه.. وكان الاسـتعمار البريطاني قد منحه الحكم الذاتي خلال فترة الاستعمار.. وكان الحاكم الهندوسي لكشمير (المهراجا) قد رفض الانضمام إلى أي من الدولتين بعد التقسيم وأراد الاستقلال لكشمير.. إلا أن السكان المسلمين ثاروا عليه مطالبينه بالانضمام إلى باكستان.. فهرب إلى الهند لطلب النجدة.. فاقتحمت القوات الهندية كشمير مما جعل القوات الباكستانية تتدخل لحماية المسلمين هناك.. فنشبت الحرب بين قوات البلدين منذ أواخر ١٩٤٨واستمرت حتى يناير ١٩٤٩حيث تم وقف إطلاق النار.. فتشكلت الحدود الفاصلة بين شطري كشمير عند هذا الخط.. فأصبح ثلثا كشمير تحت سيطرة الهند والثلث الباقي تحت السيطرة الباكستانية.

الاستقلال:

تحقق الاستقلال للهند أخيرا في عام ١٩٤٧.. بعد مقاومة شعبية ونضـال قاده غاندي بقوة مع غيره من الهنود.. وبذلك انتهى اســتعمار بريطانيا للهند.. والذي اســتمر حوالي ثلاثة قرون متتالية.. ما بين الاحتلال الرسمي.. وغير الرسمي..



٨ هل كان كذلك؟
التناقض في حياة غاندي

لأنه دائماً هناك أكثر من وجه للحقيقة.. عرفنا عبر الصـــفحات الســـابقة.. وجهاً منها.. يتحدث عن غاندي.. ذلك الزعيم.. البطل.. وجاءت كل أحداثها لتقودنا لرسـم صـورة لرجل ليس من عالم البشر.. بل هو أقرب إلي مسمي القديس منه إلي كل المسميات الأخرى.. فماذا عن غاندي الآخر.. بوجهه الذي يروج له أعداؤه.. البعض يري الصـــورة علي هذا النحو مبالغاً فيها بشدة.. وهواة تفسير التاريخ.. وتحليل شخوصه من خلال الميزان الديني يرونه (مجرد شخص وثني كافر) ومن وجهة نظرهم أن هذا يكفي لكي تفسر كل الأحداث ضده.. فأين الخير في رجل يعبد البقر.. والتزاماً بمبدأ الحيادية الذي يجب أن يكون عليه الكاتب.. ومثلما عرضنا لملامح القديسية في سيرة هذا الرجل.. كان لزاماً علينا أن نعرض للجانب الآخر.. حتي تتكامل أركان الصـــورة.. ويبقي الحكم للقارئ.. والتاريخ بعد ذلك.. ونبدأ بالمؤرخ الأيرلندي«فيشر» الذي يقول عن غاندي :

المرابي :

إن غـانـدي كـان «يـعـرض وجـوهـاً أخـرى مـحـيـرة يشـــق فـهـمـهـا عـلـى البريطانيين.. فبينما هو قديس إذ به لا يســـتنكر التعامل بالربا بصـــفته ممولاً.. ومع أنه وطني بالغ الحماس إلا أنه كسياسـي لا يرى غضاضـة في قبول هبات تجيء له من إيجارات الأحياء القذرة غير الصحية في الهند.. ومع أنه خصم سافر للروح الغربية العصرية.. إلا أنه لا يحرم على نفسه الانتفاع بما تقدمه السيارة من وسائل الراحة والتيسير.. فجمع غاندي في شخصه بذلك كل تلك المتناقضات التي تتحدى تحدياً عجيباً صبر الغرب وأناته وحكمته».

إلا أن (فيشـر) لم يقدم دليلاً لما ذكره من اسـتحلال غاندي للعمل بالمراباة التي تحرمها كل الأديان الســماوية (الصــحيحة).. كما أن زهد غاندي في الحياة لا يمنعه من اســتخدام إحدي الوســائل التي أصبحت ضرورة.. لا ترفاً.. في الحياة مثل ركوب.. واستخدام السيارات ..

الهندوس ضد غاندي :

وليس وحدهم من يخالفونه العقيدة.. من يهاجمونه.. بل هناك من يشـــاركونه نفس عقيدته.. ولا يتوقفون عن الهجوم عليه.. والتشكيك في شخصه وعلي رأسهم منظمة (آر إس إس R.S.S) الهندوسية المتطرفة التي تشـن دائماً هجوماً عنيفاً على من يفترض أنه زعيمهم.. وأبوهم الروحي.. وتتهمه بأنه ارتكب أخطاء كبيرة ما زالت الهند تدفع ثمنها حتي اليوم.. خاصةً فيما يتعلق بموافقته صاغراً علي

انفصـــال باكســـتان عن الهند.. وتبرر المنظمة ذلك بارتكاب غاندي لخطأين فادحين.. أولهما تأييده لنظام الخلافة الإسـلامي.. والآخر : موافقته على أن يصـبح جواهر لال نهرو الذي يصـفونه بضـيق الأفق السياسي أول رئيس لوزراء الهند..

رضوخ غاندي:

كذلك من أكثر المآخذ التي يأخذها هؤلاء علي غاندي موقفه من الاحتلال البريطاني لبلاده الذي اتسم أحياناً ببعض الرضوخ.. والخنوع.. خاصةً عند موافقته علي خوض غمار الحرب العالمية الثانية بجانب بريطانيا ضد دول المحور.. وشارك عام ١٩١٨ بناء على طلب من الحاكم البريطاني في الهند بمؤتمر دلهي الحربي.. ثم انتقل للمعارضــة المباشـرة للسـياســة البريطانية بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٢ وطالب خلال تلك الفترة بالاستقلال التام للهند.. وفي عام ١٩٢٢ قاد حركة عصيان مدني صعدت من الغضب الشعبي الذي وصل في بعض الأحيان إلى صدام مباشر بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية.. مما دفعه إلى إيقاف هذه الحركة.. إلا أن ذلك لم يمنع الســلطات البريطانية من الحكم عليه بالسجن ست سنوات بسبب هذه الحركة.. ولم يتوان غاندي عن العمل من أجل البريطانيين في حالات اعتبر أنهم على حق فيها.. فقد كلفوه بالقيام ببعض الوســـاطات في جنوب أفريقيا أثناء حرب البوير (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) و ثورة قبائل الزولو ضدهم(١٩٠٦).

وعندما حاولت الحكومة البريطانية تمرير بعض القوانين التي تمنع تشـــكيل أحزاب أو هيئات معارضــة للحكومة.. نظم غاندي حملات نجحت في منع إقرار تلك القوانين.. ثم دعا بنفســه إلى إيقاف الحملة عندما بدا له أن الأمور كادت أن تفلت من يده.. وأن بعض أعمال الشـــغب راحت تندلع هنا وهناك.. ثم أعلن صــــياماً عن الطعام معترضـــاً على العنف المتبادل بين الهنود من أتباعه.. وقوات الشرطة ..

ووصــــلت تلك الاتهامات أحياناً إلي حد اتهامه بالخيانة.. والطعن في مصـــداقيته كمناضـــل وطني.. وذلك بالطبع من قبل الرافضين لأسلوبه السلمي.. إلا أن ذلك مردود عليه بأن الأمور السياسية خاصةً المصيرية منها تحتاج أحياناً إلي بعض المرونة التكتيكية .

عداءه للإسلام والمسلمين :

في أواخر حياته كرس غاندي جزءاً كبيراً من أفكاره من أجل الدفاع عن حقوق الأقلية المســـلمة وحزن كثيراً من أجل انفصال باكستان.. وكذلك أعمال العنف التي شهدتها كشمير وقام بدعوة الهندوس من أجل احترام حقوق المسلمين.. يقول الأستاذ أنور الجندي رحمه الله : (لقد كانت دعوة غاندي إلى

ما أسماه اكتشاف الروح الهندي الصميم.. والرجوع إلى الحضارة الهندية.. هو بمثابة إعلان حرب على الحضـارة الإسـلامية التي عاشـت على أرض الهند أربعة عشـر قرناً.. وغيرت كل مفاهيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. بل إنها قد غيرت مفاهيم الهندوكية نفسها).

علاقات نسائية:

تدعي بعض الكتابات أن غاندي أثناء حياته الزوجية.. وقبل وفاة زوجته ارتبط بعلاقة غرامية مع كاتبة تدعي (سارا لا ديفي Saraladevi) وهي ابنة أخ الشاعر الحائز على جائزة نوبل (رابيندرانات طاغور Rabindranath Tagore).. وتصف هذه الكتابات بالتفصيل تلك العلاقة.. وكيف كان غاندي يتصور أن العناية الإلهية أرادت لهما سوياً ـ هو ومعشوقته ـ أن يعيدا صياغة تاريخ الهند في شكلٍ جديد.. وكيف اضطر غاندي لإنهاء تلك العلاقة من أجل أسرته..

ونعود لنقرأ في مفهوم غاندي للحب بين الرجل والمرأة علنا نجد فيه ما يبرر.. أو يوضـح لنا أبعاد تلك العلاقة.. فالإنسـان عند غاندي لابد أن يختار وفق ما يمليه عليه ضـميره.. ويقول : دائماً طريق الصـواب هو الأصـعب.. والإنسـان مليء بالضـعف.. ولابد له أن يتمسك بالله لكي يصـل إلى الكمال.. والحب هو العطاء الأعظم الذي تتضـمن معانيه.. الحق.. والإيمان.. وبالنسـبة له أن الحب هو أعظم القوى الموجودة في العالم.. لأن منبع الحب هو الله.. وعلي هذا الأسـاس نسـتطيع أن نقول أن غاندي كإنسـان قد يبحث عن الحب.. أو يفرض الحب نفسـه عليه.. وفي كلتا الحالتين.. هو بشـر.. ومن حقه ذلك.. لكن لأن مبدأ الحب الإنسـاني يتسـع مفهومه لديه ويقول عنه إنه من المفروض على الإنسـان ألا يؤذي من حوله.. فقد آثر أن ينوء بنفسه عن الاستمرار في تلك العلاقة التي كانت بلا شك سوف تؤذي زوجته.. وأبناءه.. وكل من حوله.. فأنهي تلك العلاقة بيده..

الواقعة السـابقة تقودنا إلي منعطف مهم وخطير فيما يروي عن الزعيم الهندي.. فالرجل كما قلنا لم يكن يجد غضـاضـة في أن يُحِبْ.. ويُحَبْ.. فهل كان كذلك في نظرته للجنس وهو الوجه الآخر من أي علاقة حب بين رجل وامرأة.. لا شـك أن الغريزة الجنسـية هي إحدى أقوي الغرائز التي تتحكم في الإنسـان.. وعلي ذلك تتباين آراء الباحثين والعلماء حول تقييم انعكاسـات النشـاط الجنسـي من مختلف النواحي الصـحية والأخلاقية علي الإنسـان.. فماذا عن الجنس في حياة الزعيم الفيلسـوف ؟ بحسـب ما جاء في بعض الكتابات التي كشفت النقاب عن آراء (وتجارب) مثيرة جدا للمهاتما غاندي .

يرى غاندي بحسب ما جاء في مذكراته الشخصية أن الممارسة الجنسية أمراً لا يليق بالقائد.. وأنها جريمة إن لم تكن بهدف الإنجاب تحديداً.. بل هي هدر غير مبرر للطاقة الحياتية واعتبر أن كل ممارسة جنسية تعادل ٢٤ ساعة من الجهد العقلي و ٧٢ساعة من الجهد العضلي وبالتالي فهي عنف إرادي.. بل

وبالغ في وصفها بأنها أحد أشكال الانتحار .. كما أكد على أن الزعيم يجب أن يختلف تماماً عن الناس الذين يقودهم ولهذا اتخذ قراره بالتزهد منذ العام ١٩٠٦وفق المذهب الهندوسي.. وحسب (الميثيولوجيا) الهندوسية القديمة كان على الزعماء وحكماء القبائل مقاومة جميع حالات الإغراء التي كانوا يتعرضون لها.. وبعضها كان مقصوداً من الخصوم الذين كانوا يرسلون لهم الراقصات والعاهرات بهدف هدر طاقاتهم.

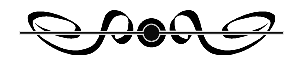
الأكثر إثارة من هذا هو قيام غاندي ببعض التجارب السرية.. والخاصة لمقاومة الإغراء الجنسي.. وكان يبرر هذا باعتقاده أنه تسعى بذلك لإنقاذ الهند من التمزق.. وفي أواخر ديسمبر ١٩٤٦ عندما بدأت الصراعات بين المسلمين والهندوس أراد غاندي تحقيق التآلف بين الطائفتين عن طريق التلاصق العاري مع فتاة اسمها (مانو كانت آنذاك في التاسعة عشرة من عمرها.. في حين كان غاندي في السابعة والسبعين وانفرد بها في غرفته.. ونام بجوارها ليلة كاملة وهي عارية تماماً في سرير واحد.. واعترف بنفسه فيما بعد بهذه الواقعة معتبراً أنه أنقذ البلاد من التمزق بهذه التجربة الفريدة.. وقد أثارت هذه الاعترافات استنكارًا واسعًا لدى الجميع بما فيهم الهندوس أنفسهم.

ردود فعل عكسية

عندما تم تقسيم شبه الجزيرة الهندية عام ١٩٤٧ لتظهر باكستان للمرة الأولي علي خريطة العالم الجغرافية.. والسياسية.. اعتقد بعض الهندوس أن ذلك ليس نتيجة واقع سياسي.. أو هو الحل الأمثل للنزاعات العرقية الدامية في الهند.. بل كان رد فعل.. وغضب إلهي نتيجة فشل التجربة الجنسية التي قام بها غاندي بمعنى أنه ربما لم يستطع آنذاك مقاومة رغبته الجنسية وهو ينام لصيقاً بفتاة شابة عارية.. وتمكن أحد المتشددين الهندوس من إطلاق النار علي غاندي فأرداه قتيلاً.. والغريب أنه وقت اغتياله كانت نفس الفتاة التي نام معها في تجربته تلك (مانو) إلى جانبه.. مما حدا بمن يتبنون هذا التفسير أن يستشهدوا بذلك.. بعد ما يزيد عن نصف قرن كادت أن تحدث أزمة دبلوماسية خطيرة بين الهند .. والولايات المتحدة بسبب قيام قناة تليفزيونية خاصة بها وهي قناة (إم.تي.في) بالتعرض لهذه الواقعة بما يسيء الي شخص غاندي في عمل كوميدي من الرسوم المتحركة تقوم فكرته علي استنساخ الزعماء التاريخيين ..واعتذرت القناة بعد خروج مظاهرات واحتجاجات في الهند بسبب الشخصية التي ظهرت في برنامج (مدرسة المستنسخين الثانوية) التي يوجد بها مستنسخون من رموز تاريخية أخرى مثل القديسة جان دارك والرئيسين الأمريكيين أبراهام لينكولن وجون كنيدي. . وقال بيان للقناة : «تعتذر قناة إم.تي.في أمريكا عن أي إساءة لشعب الهند ولذكرى المهاتما غاندي. ونعبر عن عظيم تقديرنا لغاندي بوصفه زعيمًا هنديًا مبجلاً وواحدًا من الرموز المهمة في تاريخ العالم.وقالت القناة أن البرنامج يخاطب فقط الجمهور الأمريكي «المعتاد على مثل هذه الأعمال الكوميدية.».. وتابع

البيان قائلا : «نعترف أن اختلاف الثقافات قد يؤدي إلى اتخاذ مواقف متباينة بشـأن العمل ونأسـف لأي مضايقة نجمت عن البرنامج.».. ووصف موقع برنامج مدرسة المستنسخين التابع لقناة إم.تي.في على الإنترنت غاندي في العمل الكوميدي بأنه لا يفكر إلا في الجنس والحفلات «ويوقع نفسه وصديقه لينكولن في مواقف محرجة» . وقال ملخص للحلقة التاسـعة من البرنامج الكوميدي إنه عندما انتقلت الفتاتان المسـتنسـختان من جان دارك وكليوباترا للعيش معا في نفس الغرفة «شـرع غاندي وجون كنيدي في التجسس عليهما آملين في رؤية مشاهد من الشذوذ الجنسي بين الفتاتين».

يذكر أن وزيرة الصـحة الهندية في حكومة (جواهر لال نهرو) اعترفت فيما بعد بأنها قامت العام ١٩٤٤بتجربة النوم عارية ملاصقة لغاندي مما يعني أن غاندي كان يقوم بين حين وآخر بهذه التجارب العجيبة بدعوى إنقاذ مجتمعه.. ووطنه .



٩.ماذا تبقى من غاندي

والآن نتساءل .. ماذا تبقى من غاندي؟

نقول بقي منه الكثير.. ذكره الحاضر دوماً في ذاكرة التاريخ الناصع لسجل الزعماء في القرن العشرين..

بقي منه حبه في قلب كل شعبه.. أجيالاً.. وراء أجيال..

بقيت صوره معلقة داخل كل منزل في الهند..

بقي احترامه في عقل كل إنسان سمع بذكره.. وقرأ له.. أو قرأ عنه..

بقي منــه رمز الزعيم للشـــعوب التى تعيش بلا زعمـاء.. وفرقٌ كبير بين الرئيس.. والزعيم..

بقي كونه نموذجًا فريدًا من الشخصيات القيادية في العالم.. استطاع بمبادئه أن يجمع بين الأمور التي قد يعتبرها أكثر الناس متناقضات.

بقي أنه عبر بشعبه عواصف الجهل.. والفقر.. والجوع.. والمرض إلى مرفأ الحرية.

مؤلفاته الخاصة..

ويرصد بعض الباحثين مؤلفات غاندي.. ويذكرون أنها وصلت إلى ٧٠ كتاباً جميعها باللغة الهندية بالطبع.. في حين أن المترجم منها.. والمعروف قليل للغاية قياســاً بهذا الرقم.. وقبل أن نعرض للمعروف.. والمشهور منها.. هناك ملاحظة هامة يجب الإشارة إليها.. وهي أن غاندي في جميع تلك الكتابات حاول قدر الإمكان أن يشـرح الحقيقة ويبسـطها بطريقة دينية صـرفة.. وكأنه يريد أن يوصل رسالة هامة لكل من يقرأ كتاباته وهي : « أن حياته كلها كانت تدور في إطار ديني بحت.. بحثاً عن حقيقة الوجود.. والتي توصل أيضاً عبر كتاباته أنها هي (السلام).. فجعل منه هدفه الوحيد.. والأسمى في الحياة..

١- قدم غاندي كتاب « قصــة تجاربي مع الحقيقة » هذا الكتاب الذي سرد فيه غاندي بنفسـه قصـة حياته بجميع ما مرّ فيها من مواقف وأحداث.. وقال فيه عن نفسه أنه مجرد إنسان.. يخطئ.. وأروع ما في كتابه ذكره لهذه الأخطاء دونما تورية أو دفاع عن النفس ولكنه يعود عن الخطأ.. ويندم عليه.. ويمتنع عنه مرة أخرى.. يفي بالوعود التي أعطاها لنفســـه وللآخرين ولا يعود عنها حتى في لحظات الخطر المهدد بالموت فقد وعد أمه شابًا أن لا يطعم منتجات الحيوان وعند المرض ومرات عدة نصحه

٢- الأطباء بالحليب الذي سينقذ حياته خاصة وأنه هزيل الجسم لكنه لم يحنث بوعده إلا مرة واحدة ولم يكررها بتكرار المرض إيماناً منه بفائدة الطعام النباتي

- ينظر غاندى من خلال كتابه إلى الناس جميعاً على أنهم مخلوقات كريمة لا يجوز بأي حال من الأحوال إهانتهم أو الحط من قدرهم حتى لو كانوا أعداء أو حتى مجرمين.. بل السـيئ فيهم هو فعلهم وليست ذواتهم ونتج عن ذلك تطبيقات مهمة منها :

- يحب أعداءه المحتلين لبلده.. يحترم قانونهم.. ويتطوع كقائد مجموعة إسعاف في أكثر من مناسبة وقد يبدو هذا قمة العمالة بالنسـبة لكل من حوله و كانت له دوافعه التي تحدثنا عنها وكان يبتغي من وراءها تجريد عدوه من أعظم الأسلحة الخوف والحقد.

- مسامحته للذين اعتدوا عليه بالضرب و الإهانة في عدة مناسبات إيمانًا منه بأن المسامحة أقوى بما لا يقاس من الثأر أو العدل

- في مجتمعه الصغير (كون مجموعات تعيش معًا تدرس و تعمل وفق مبادئ التسامح) كان يوجد المسلم والهندوسي و المسيحي ومن طبقة المنبوذين والسادة يحترم جميع الأديان الأخرى يصنعون لهم الطعام في الصيام ويساعدون بعضهم على عبادتهم دون أي دعوة لتغير المعتقد بل على العكس تمامًا لقد كانوا يشجعون بعضهم البعض على التمسك كلٌ بدينه باعتبارها كلها تؤدي إلى نفس الإله.. وقد يظهر هذا لنا كتناقض ولكنه كان عند غاندي مبدأً

- شجاع لا يهاب الموت في سبيل وعوده.. أو مبادئه مثل تطوعه للتمريض في منطقة الطاعون والجزام.

- يطور نفسه دائماً ويقرأ الكتب للتغيير لا للثقافة فقط.. ويتعلم صنع الأصناف النباتية من الطعام وحياكة النسيج وصنع النعال يتعلم ممارسة المحاماة بعد اعتبار نفسه لا يصلح لها والعمل في مؤسسات الخدمة العامة (الدفاع عن حقوق الهنود)

- أكثر من متواضع.. فلم يكن التواضع فعلاً يقوم به عند اللزوم .. بل كان جزءاً من ذاته طوال حياته.. قد يصل لدرجة قبوله بمهام ثانوية جدًا بكل حب إلى تزرير قميص المدير إلى تنظيف المراحيض وهو ابن وزير وقائد معروف ومحام مشهور.

- الصدق حتى ولو أدى به ذلك إلى السجن أو في الدفاع عن موكل مذنب.

- يتحمل مسؤولية أفعاله وحتى أفعال الجاهلين من شعبه و يدخل السجن في سبيل ذلك

- يعتقد أن تربية النفس المســتمرة وتهذيبها هو الطريق نحو تربية المجتمع وتهذيبه وبالتالي الحصــول على الأهداف الكبيرة (مثل : صـيامه ليتوقف القتال بين الهندوس والمسـلمين وصـيامه من أجل نجاح إضراب العمال وامتناعه عن ملح الطعام سنة لإقناع زوجته المريضة بأن ذلك ممكن)

***

٣- الحكم الذاتي للهند (هند سواراج ١٩٠٨).. وهو كتاب باللغة الكوجاراتية يعيد فيه النظر منهجياً في قيم المدنية الغربية مثل : (ســيادة الآلة.. التنظيم الاجتماعي المهني.. مناهج العمل الســياســي).. وعاكساً صدى الأفكار التي شغلته طيلة حياته .

***

٤- كما صــــدر العديد من المؤلفات والكتب التي تتناول الســـيرة الذاتية لغاندي وقصــــة كفاحه والإمبراطورية التي كونها من هذه الكتب نذكر كتاب «موهنداس» لحفيده راجموهان غاندي ويعمل الآن محاضـراً في جامعة إلينوي وهو كاتب هندي معروف تجاوز حالياً الخامسـة والسـبعين من عمره وكان عضــواً في البرلمان الهندى.. وكتاب آخر لمحمود عباس العقاد بعنوان «روح عظيم – المهاتما غاندي».

قال غاندي

- حياتي مثل الكتاب المفتوح.. ليس فيها أسرار.. فأنا لا أحب الأسرار.
- الحقيقة هي أهم شيء في حياتي.
- **يتحدث عن اللا عنف.. فلسفته الأساسية فيقول :**

عقيدتي بشــأن اللاعنف لم تعتمد على ســلطان شــخص بل نشــأت من دراســتي لكل أديان العالم.. فالديانات المختلفة قاطبة هي زهور روضة واحدة.. وأفنان دوحة باسقة.

(إن المجاهد في معركة عدم العنف يجب أن يكون أقرب ما يكون من الإنســان الكامل وكلما طهرنا أنفسنا من العنف كلما زدنا فضلاً.. وعندها لن يتردد أحد في الإيمان بقوة الحب.. وإذا عمت الدنيا هذه القوة لأحدثت ثورة في مثلنا العليا.. ولمحت الاســتبداد ولقضــت على الروح المريبة النامية أبدًا والتي تئن تحت نيرها الأمم الغربية إلي حد الموت.

- إن اللاعنف هو القوة العظمى لدى الإنسان.. وهو أعظم من ما أبدعه الإنسان من أكثر الأسلحة قدرة على التدمير .

- يجب ألا تفقدوا الأمل في الإنسانية.. أن الإنسانية محيط.. وإذا ما كانت بضع قطرات من المحيط قذرة فلا يصبح المحيط بأكمله قذراً .
- إن النصر الناتج عن العنف هو مساوي للهزيمة.. إذ انه سريع الانقضاء.
- أنا لا أريد أن يكون منزلي محاطاً بجدار من كافة النواحي ولا أريد نوافذي أن تكون مسدودة. أريد أن تكون ثقافات كافة البلدان منتشرة حول منزلي بحرية.. ولكني أرفض أن أنسف من قبل أي منها .
- من الأفضل أن أكون عنيفاً.. إذا كان هنالك عنف في قلوبنا من ارتداء رداء اللاعنف لتغطية العجز.
- إن التأقلم ليس تقليداً.. بل إنه يعني قوة المقاومة والاستيعاب.
- أنا مستعد لأن أموت.. ولكن ليس هنالك أي داعٍ لأكون مستعداً للقتل.
- أينما يتواجد الحب.. تتواجد الحياة.
- ليس هنالك طريق للسلام.. بل إن السلام هو الطريق.
- لا يمكن تصنيع العاطفة أو تنظيمها حسب القانون.. إذا لم يحمل شخص أي عاطفة لشخص آخر أو لنظام.. فيجب أن يكون الشخص حراً في التعبير عن قلة عاطفته طالما لم يقم بالتفكير ملياً أو تشجيع أو التحريض على العنف.. أن الغضب وقلة التحمل هما أعداء الفهم الصواب.
- إن التدمير ليس قانون البشر.. ويعيش الإنسان بحرية فقط باستعداده للموت إذا ما لزم الأمر على أيدي أخاه وليس أبدا بقتله إياه.. إن أية جريمة.. أو إصابة بغض النظر عن القضية.. ارتكبت أو سببت لشخص آخر هي جريمة ضد الإنسانية.
- إن اللاعنف والجبن لا يتماشيان معاً.. بإمكاني القيام بتخيل شخص كامل التسليح هو في داخله جبان. أن حيازة الأسلحة تعني تواجد عنصر خوف.. أن لم يكن عنصر جبن.. ولكن اللاعنف الحقيقي هو استحالة دون حيازة عدم الخوف الغير زائف.
- إن اللاعنف هو أعظم قوة متوفرة للبشرية.. إنها أقوى من أقوى سلاح دمار تم تصميمه ببراعة الإنسان.
- إن حرمان شخص من حريته الطبيعية وإنكاره أسباب الراحة العادية هو أسوأ من تجويع الجسد.. إذ أن ذلك هو تجويع للروح القاطنة في الجسد.
- يمكنك أن تقيدني.. أن تعذبني.. يمكنك حتى أن تقوم بتدمير هذا الجسد.. ولكنك لن تنجح أبدًا في احتجاز ذهني.

- إذا كان المستعمر متوحشاً.. وأحمقاً.. وفاقداً للأخلاق.. فيجب ألا ننجرف وننافسه في توحشه.. ولنثبت للعالم أننا أصحاب حضارة وأخلاقيات أرقى.
- الإنسان لا يملك إمكانية تحقيق الممكنات كلها.

يقول عن سيد الخلق محمد ^:

- (أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته.. بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود.. وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه.. وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته.. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق.. وتخطت المصاعب وليس السيف.. بعد انتهائي من قراءة حياة الرسول وجدت نفسي آسفاً لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة)

رأيه في الإسلام.. والمسلمين :

- يمكن لأي شخص من خلال تعلم علوم القرآن..أن يعرف أسرار وحكم الدين دون أن يحتاج إلى خصائص نص مصطنعة.
- لا يوجد في القرآن أمر يجبر الآخرين في الرجوع عن مذاهبهم فهذا الكتاب المقدس ـــ يقصد القرآن الكريم ـ يقول وبأبسط صورة (لا إكراه في الدين) ..
- تعلمت من الحسين.. كيف أكون مظلوماً.. فأنتصر.
- حيث يكون الحب.. يكون الرب .
- لو أن لنا إيماناً.. ولو أن لنا قلباً يصلي.. كنا تجنبنا الغواية.. وتوصلنا إلي الله في تواضع.. حتى نصبح.. صفراً.
- تبقي الأخطاء عارية من كل حصانة حتى لو غطتها كل نصوص الكون المقدسة.
- بالإيمان يتخطى الإنسان أعتي الجبال.
- الخطايا تبعدنا عن معرفة محبة الله شخصياً.
- الكمال صفة لجلالته ـــ يقصد جلال الله ـــ ولكنه بالديموقراطية ما أكثر ما يتحمل من مخلوقاته الضئيلة عندما تسأله عن وجوده رغم أنه موجود في كل ذرة أمامنا وحولنا وداخلنا .
- يمكننا الانتصار علي خصمنا فقط بالحب وليس بالكراهية.. فالكراهية شكل مهذب للعنف وهي

- تجرح الحاقد ولا تمس المحقود عليه أبداً.
- علينا احترام الديانات الأخرى كاحترامنا لديننا فالتسامح المجرد لا يكفي.
- ضد من سنسدد عداوتنا والله نفسه يقول إنه موجود في الكائنات الحية كلها.
- لقد أردت أن أتعرف على أفضل ما في حياة شخص يحمل اليوم سيطرة لا جدال فيها على قلوب ملايين من بني البشــر... ولقد اقتنعت أكثر من أي وقت مضـــى بحقيقة أن الســـيف لم يكن هو من فاز بالمكانة للإســـلام في تلك الأيام في برنامج الحياة.. بل كانت البســـاطة.. والاحترام الدقيق للعهود.. والتكريس العظيم تجاه أصـــدقائه وأتباعه.. وجراءته.. وقلة خوفه.. وثقته التامة بالله وبرســـالته.. بهذه الأمور وليس بحد الســـيف تقدموا.. وســـخرت كافة العقبات أمامهم.. عندما قمت بإغلاق المجلد الثاني (من ســيرة نبي الإســلام).. قمت بذلك بأســف لأنه ليس هنالك المزيد لأقوم بقراءته عن صـــاحب هذه الحياة العظيمة.

رأيه في اليهود :

كان لغاندي دائماً آراءه وأفكاره والتي تهدف جميعها لأهمية حرية الشـــعوب وأحقية الإنســـان في العيش في سلام.. وكانت لغاندي ليست فقط آراء في القضـية الهندية ولكن في غيرها من القضـايا مثل قضية الشرق الأوسط والتي قال فيها :

« أنا لا أستسيغ المطالبة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ففلسطين ملك للعرب تماماً كما أن إنجلترا ملك للإنجليز وفرنسا للفرنسيين.. إن فلسطين التي جاء ذكرها في التوراة ليست في الأرض الجغرافية.. بل هي في قلوبهم وليس هناك ما يمكن أن يقال ضـــد مقاومة العرب في مواجهة عقبات لا قبل لهم بها ».

رأيه في الحضارة الإنسانية :

لقد وصـلت هذه الحضــارة إلى درجة لم يعد علينا معها سـوى الانتظار بصـبر لنراها تقضــي على نفسها وتنهار كبيت من الورق المقوي أمام النار.. والتعاليم الهندوسية تسميها العصر الأسود المظلم.. ليس الثراء والفقر هو ما يجعلنا سعداء أو تعساء.. بل إننا كثيراً ما نلاحظ العكس.. ونجد أن الملايين قد تكون من أهم أسباب التعاسة .



وقالوا عن غاندي

جواهر لال نـهرو:

يقول نهرو في كتابه (قصة حياتي) :

«إن شــخصــية غاندي مبنية وفق المشــاركة اليومية الطويلة والوثيقة مع الجماهير.. إنه يتحســس أحاسيس الجماهير.. ويتفاعل معها.. ويكيف عمله وفقاً لحاجاتها.. مما يؤدي إلي أن يكون قراره مكسواً بالمنطق والقناعة والاستجابة »

أينشتاين :

يقول: إن غاندي الذي تزعم الشــعب الهندي.. لا تؤيده في هذه الزعامة أية ســلطة خارجية.. وهو ســياســي لا يقوم نجاحه علي الحيلة.. أو المهارة في الوســائل الفنية.. إنما علي قوته الإقناعية.. وفي شخصيته.. وهو مكافح مظفر يحتقر علي الدوام أساليب العنف.. وهو حكيم متواضع تسلح بالإرادة كي يتناسق سلوكه.. مع أقواله.. ورصد كل قواه لينهض بشعبه ويرقي بمصيره.. وقد جابه توحش أوربا بوقار إنسانيته.. ولذلك كان دائماً يرتفع عليها.. أن الأجيال القادمة سوف تشك في أن إنسانا مثل هذا سعي بقدمه علي أرضنا.. إنه باختصار أعظم عبقرية سياسية عرفتها حضارتنا.

بقي أن نقول : أن حفيد غاندي راجموهان الذي تحدثنا عنه من قبل قام بالكشف عن تفاصيل جديدة خاصــة بجده في تأريخه لحياته.. وأصــدر هذه السيرة الذاتية الجديدة لجده بعنوان «مهانداس.. القصــة الحقيقية للرجل ولشعبه وللإمبراطورية.

ويقع الكتاب في نحو ٧٠٠ صــفحة واســتغرقت كتابته عامين ونصــف.. وصــدر عن دار بنجوين للنشر البريطانية[٩].

ويقول الحفيد أن هذه تعتبر ســيرة حياة جديدة تماماً عن المهاتما غاندي تهدف إلى الكشـــف عن التفاصيل الحميمة بشأن زعيم حركة حرية الهند الذي يصور دائماً على أنه نجم خيالي.. وليس شخصاً حقيقياً.. وتشــرح هذه السيرة تفاصيل حياة غاندي مع أسرته وأعدائه وأصدقائه بما في ذلك لقاؤه مع أحفاده.. ومن بينهم مؤلف الكتاب.. الذي أقام حفلاً للإعلان عن صـــدور الكتاب في نفس المكان الذي اغتيل فيه جده المهاتما غاندي قبل ٦٠ عاماً..

---

(١) Mohandas-Atrue story about a Man. his people and an Empire.

وأضـاف «هذا الكتاب مختلف عن بقية الكتب لأنه سيرة مكتملة وتاريخية صـريحة تماماً.. والسـير الأخرى ركزت فقط على بعض النواحي من حياة جدي متجاهلة نواحي أخرى أهم من حياته.. ويصور الكتاب حياة غاندي اليومية وأقرب علاقاته ومواجهاته مع الإمبراطورية البريطانية.. ومع شـــعبه وأسرته الذين اعتراهم الانقسام الشديد.. وقال الحفيد :

«الكتاب سيحرر غاندي من كفنه ومن الأسطورة.. وسيقول الحقيقة للقارئ.. وسيظهر عمق عزيمته وقدرته على الاحتمال.. على الرغم من أنه تعرض للامتحان المرة تلو الأخرى»

***



لماذا لم يفز غاندي بجائزة نوبل للسلام؟ [١٠]



تجد في قاموس أكسفورد لتاريخ العالم المعاصـر تحت كلمة «جائزة نوبل للسـلام» أن جائزة نوبل للسلام هي «الجائزة العالمية الأكثر مكانة».

إنه لسؤال مثير للاهتمام: لماذا يهتم العالم بجائزة نوبل للسلام؟ وتقريبًا.. حين تعلن الجائزة في شهر أكتوبرمن كل عام.. يبدأ الكثير من السـياسـيين البارزين وحتى الرؤسـاء ورؤسـاء الوزراء والصـحف البارزة برشـق القرار الذي تصـنعه لجنة نوبل النرويجية بالتعليقات.. فالبعض يطري والبعض الآخر يهاجم.. ولكن المهم وبيت القصيد هو أن العالم كله يهتم.

فما هي الأسباب وراء هذا الاهتمام؟

أولا: بدأ العمل بمنح جائزة نوبل للســـلام.. كغيرها من الجوائز.. منذ عام ١٩٠١ وكان صـــاحب الفكرة هو السويدي ألفريد نوبل الذي قام باختراع لأشياء كثيرة من بينها الديناميت والذي قد توفي عام ١٨٩٦ وبقيت وصيته خمس سنوات قبل أن توضع موضع التنفيذ.

---

(١٠) بتصرف نقلاً عن جير لونستاد..مدير معهد نوبل للسلام بالنرويج والمنشور ترجمته العربية على موقع «المؤتمر نت» بتاريخ ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ .

إغفال غاندي أبرز الأخطاء

وقد اقترفت لجنة نوبل للســـلام عدة أخطاء وأخطرها هو إغفال منح الجائزة المهاتما غاندي لأنه كان المتحدث الرسمي الرئيسى باسم اللاعنف في القرن العشرين.

أولاً : جائزة نوبل منحت لمدة ١١٠ سنوات.. بينما الكثير من جوائز السلام حديثة العهد حيث شرع العمل بتطبيق بعضها بعد الحرب العالمية الثانية.. وما يجعل الفارق كبيرا.

ثانيًا: تعتبر جائزة السلام واحدة من مجموعة جوائز أسرة نوبل.. وكان ستيج رامل المدير السابق لمؤســـسة نوبل في ســتوكهولم يقول إن : جائزة الســلام تلقى اهتماماً أكبر من جوائز نوبل الأخرى مجتمعة.. وهذا صــحيحاً.. ولكننا نحن في النرويج نشــعر بالســعادة حين يقترن ذكرنا بأكثر الجوائز موضوعية وعلمية في العالم وهي تمنح في ستوكهولم.. ونحن نشعر أن جوائز نوبل مجتمعة تمثل قوة أكبر مما لو كانت متفرقة.

ثالثًا: تتميز جائزة نوبل للسلام بسجلها التاريخي.. وأود أن أسجل هنا أنه رغم أن هذا السجل حافل بالاحترام فإنه لم يبلغ الكمال.

وقد اقترفت لجنة نوبل للســـلام عدة أخطاء منها ما هو خطير.. وفي رأيي يكمن أخطرها في إغفال المهاتما غاندي.. لأنه كان المتحدث الرسمي الرئيسي باسم اللاعنف في القرن العشرين.

وعندما قررت اللجنة منح غاندي الجائزة عام ١٩٤٨ ســرعان ما اغتيل الرجل.. ووفقاً للقوانين في تلك الآونة كان يحق له أن ينال الجائزة.. ولكن عملية الاغتيال كانت عائقاً واضــحاً حال دون ذلك وإن لم تكن تلك حجة كافية.. فقد كان بإمكانه أن يحظى بها عام ١٩٤٧ أو ١٩٤٦ أو حتى قبيل الحرب العالمية الثانية.. والآن لم يعد بالإمكان منح الجوائز بعد وفاة مستحقيها.. وسيسجل التاريخ أن غاندي لم يتسلم جائزة نوبل للسلام.

وإذا أمعنت النظر في قائمة أسماء الذين حظوا بالجائزة على مدار المائة وثلاث سنوات ستتساءل من دون شك عن بعض تلك الأسماء.. فثمة من حظي بجائزة نوبل للسلام دون أن يستحقها.

وهناك الكثير من الصــــعوبات التي تعتري عملية الاختيار.. وبالتالي فرأيي أن هناك الكثير ممن أُغفِلوُا وهم يستحقونها.. بينما نالها البعض ولم يكونوا يستحقونها.

وقد شـــاب معظم جوائزنا الناجحة الخلاف.. ولا يعني بالضــــرورة وجود خلل إن حام الجدل حول بعضها.. فالقرارات سواء كانت ناجحة أو مثيرة للجدل يعتريها النزاع والخلاف.

كان كارل فون أوزتسكي رمزاً للنضال في وجه هتلر.. وعندما منح الجائزة عام ١٩٣٥ استقال اثنان من أعضاء لجنة نوبل.. وكانت هناك ردة فعل عنيفة من الغضب عالمياً وخاصة من قبل هتلر الذي أصدر قانوناً يقضي بحظر الحصول على جائزة نوبل على الألمان.. وعليه حرم ثلاثة علماء في الطبيعة من الذهاب إلى ستوكهولم لاستلام جوائزهم أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين.

وعندما منحت الجائزة عام ١٩٧٥ لأندريه سخاروف ولليخ فاليسا أبدت السلطات السوفياتية فزعها.. كما أظهرت السلطات الصينية فزعاً مماثلاً عندما تسلم الدلاي لاما جائزة نوبل للسلام.. غير أن الكثير منا يتفهم تلك القرارات الصعبة.

ومن المهم ألا نسبب الحرج للحكومات قدر الإمكان.. ولكننا ندافع عن مبادئ معينة حتى وإن أعربت الحكومات الكبيرة عن خيبة أملها.

رابعًا: لقد ساهمت نوبل للسلام في تطوير عصرنا.. فقد كانت الجائزة حصراً على الأميركيين الشماليين والأوروبيين.. وأخذت وقتاً طويلاً قبل أن تصبح عالمية.

ففي عام ١٩٦٠ نال ألبرت لتولي رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا الجائزة التي شكلت بالفعل البداية الحقيقية لعولمة جائزة نوبل.. ومنذ ذلك الحين كان هناك العديد من الحائزين على الجائزة من مختلف القارات.

وحديثاً شرعت لجنة نوبل لإعطاء اهتمام خاص لما يجري في آسيا حيث يقطنها أكثر من نصف سكان العالم.. لذا منحنا الدلاي لاما الجائزة عام ١٩٨٩ ونالتها أونج سان سوكي من بورما عام ١٩٩١ وكذلك حظي بها الأسقف بيلو وجوسي راموس هورتا من تيمور الشرقية عام ١٩٩٦ وحصل عليها كيم دي يانج من كوريا الجنوبية عام ٢٠٠٠.

وفي عام ٢٠٠٣ ذهبت الجائزة إلى الإيرانية المنشقة شرين عبادي.. وحتى اللحظة هناك إحدى عشرة امرأة ممن نالوا جائزة نوبل للسلام.. وقد لا يكون هذا سجلاً جيداً ولكنه يحظى بالاحترام والتقدير.

وتؤمن لجنة نوبل النرويجية بتوسيع مفهوم السلام.. فهناك دروب أخرى للسلام يستطيع أن يشارك من خلالها السياسيون ورجال الدولة فضلاً عن محبي الخير والإصلاح الاجتماعي وكذا أولئك الذين يعملون على نزع الأسلحة.

لا يمكننا أن نتوقع من لجنة مؤلفة من أربعة أعضاء نرويجيين غير معروفي الهوية لدى الكثيرين أن يجلبوا التغيير للعالم.

ففي العقود الأخيرة اتسع مفهوم السلام ليشمل حقوق الإنسان.. حيث منحت حديثاً العديد من الجوائز معتمدة الكثير من مظاهر حقوق الإنسان.. فقد توصلت اللجنة إلى قناعة أنه في نهاية المطاف لن يكون هناك سلام دون ديمقراطية وحقوق إنسان.. ونحن نشعر بالفخر لهذه الإضافة الأكثر قوة في علم السياسة الحديث.

وثمة من يطرح مكانة الجائزة لصلتها بالجائزة المالية.. وهذا ينطبق على جميع جوائز نوبل بشكل واضح.. صحيح أن الحائزين عليها يتلقون مبلغاً جيداً من المال.. ما يعادل مليون دولار أميركي.. إضافة إلى شهادة دبلوم وميدالية ذهبية.. ومع ذلك ثمة جوائز ذات قيمة أكبر.

وهناك جائزة بحسب القوانين ينبغي أن تحظى بمبالغ مالية أكثر من جائزة نوبل.. وبالرغم من ذلك نكاد نتفق جميعا على أن أهمية البعد المادي تبقى محدودة.

بدلاً من ذلك ينبغي أن ينظر إلى الجائزة كجائزة فخرية سامية.. وربما الأسمى في العالم. إنها أيضًا إشهار رائع للحائزين عليها ممن لم تكن لديهم شهرة.. فالكثير منهم تحدث عن هذا التغير الدراماتيكي قبل وبعد الجائزة.. إنها فاتح للأبواب.. كما قيل لنا.. فهي تفتح عمليا جميع الأبواب.

وقد تحدث كل من سخاروف وليخ فاليسا عن الحماية التي تلقوها بسبب الجائزة.. وكلنا أمل أن يتحقق ذلك لأونغ سان سو كي في ظروفها الصعبة ببورما.

وبشكل عرضي وفي أفضل أحوالها.. يمكن للجائزة أن تسهم في التغيير السياسي.. وأكبر شاهد على ذلك ما وقع عندما منحت الجائزة للأسقف بيلو وجوسي راموس هورتا من تيمور الشرقية عام ١٩٩٦ حيث كانت جزءاً من إندونيسيا.. والآن أصبحت بلداً مستقلاً.. لذلك عبر الكثير من التيموريين عن امتنانهم للجنة نوبل النرويجية لهذا التغير الدراماتيكي.. وقد كانت الجائزة من دون شك عاملاً هاماً فيه.

ستدرك جميع الجهات في الشرق الأوسط أنه لا بديل عن التسوية ومن ثم ستكون لجنة نوبل للسلام على أتم الاستعداد لمنح جائزة نوبل للسلام

وفي الشرق الأوسط هناك الكثير من العوامل المخيبة للآمال.. فتحديات السلام هناك لا تضاهيها تحديات في أي مكان آخر.. فكل يوم نقرأ عن أكثر الأعمال ترويعاً.. ومع ذلك ينبغي ألا نغفل كلياً ما تم إنجازه.. فقد تم تكريم أنور السادات ومناحيم بيجن بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٨ لتحقيق السلام بين البلدين.

أما اتفاقية أوسلو المنتهكة حالياً فقد دفعت بياسر عرفات وشمعون بيريز وإسحاق رابين أن ينالوا جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٤ وتلك الاتفاقية تضمنت اعترافاً متبادلاً بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية فضلاً عن تحقيق السلام بين إسرائيل والأردن.

وحديثًا رفع المعارضون للتسوية أيديهم.. ولكن آجلاً أو عاجلاً ستدرك جميع الجهات أنه لا بديل عن التسوية.. ومن ثم ستكون لجنة نوبل للسلام على أتم الاستعداد لمنح جائزة نوبل للسلام.

***

الملك جورج : خسارة لن تعوّضها البشرية

علق الملك جورج ملك بريطانيا علي وفاة غاندي بأنها «خسارة لن تعوّضها البشرية».. وأعرب رئيس الوزراء البريطاني كليمنت آتلي عن «الأسى العميق» في برقية بعث بها إلى جواهر لال نهرو رئيس الوزراء الهندي.. ولم تخرج تعليقات باقي رؤساء وملوك العالم أجمع عن تلك الكلمات.. بينما علي مستوي كافة شعوب الأرض.. فقد عمت الجميع حالة شديدة من الحزن حيال ما حدث لهذا الرجل.. الذي اتفق الجميع علي حبه.

وبعدها أقيم له في لندن تمثال وسط ساحة «تافستوك» بالقرب من إحدى الكليات التابعة لجامعة لندن.. ومؤخراً تم في لندن تدشين برنامج ثقافي سياحي مستمد من تراث شخصية غاندي.. تقوم فكرته على حض عامة الناس على المشي بطريقته الخاصة التي تسمى بالهندية «ساتياجراها» وذلك من خلال التجوال مشياً في جميع المناطق التي عاش أو درس فيها غاندي أثناء إقامته بلندن.



التمثال النصفي لغاندي الموجود في انجلترا



وتمثاله في الهند

وقد رثي كثير من شعراء العالم غاندي عند وفاته.. ومن بينهم هذا الشاعر المجهول

(مرثية في حب غاندي):

نثروك رماداً

بل زهوراً رماديةً

تتغنى بعطرك ليلَ نهارْ

من رأى الحبَّ

كيف تناثر عبر البحارْ

تشتهيه الشواطئُ

فيضاً من النور

يغمرها في الهزيع الأخيرْ

يعيد إليها موانئها

و نوارسَها

و مواويلَ عشاقها

يومَ كانتْ و كانوا...

***

نثروك نضالاً

ليس بالعنفِ

بل بامتشاق السلام

هل رأيت النياشينَ..

وحشيةَ الحربِ..

غطرسةَ الجندِ

كيف تطأطئ صاغرةً

حين يبزغ

وجهُ السلام البريء الوديعْ

ذلك الوجهُ

أنّى تبسّمَ..

ذاب المدى في أغاني الربيعْ

***

نثروك نشيداً

أرضعتك الحقيقةُ ألحانَهُ

وجرى الكانج يوماً بهِ

فرمى النايُ أنغامهُ

.. و اصطفاكْ

نحن رهْنُ خطاك النحيلةِ

يا سيدي

نحن رهن خطاكْ

بيدَ أن الدروب انتحارْ

***

أيها المتناثر حبّا

نصفَ عارٍ

و تتلو صلاتك خاشعةً

و أناملك العشرُ

تمسح في رقّةٍ

نولَك الخشبي

و تغزل للهندِ

- من سُحْبها المستريحةِ

فوق بساطك – ثوبا

***

أيها المتناثر حبّا

كيف للأرضِ

أن تغسل الشرَّمن قلبها

أن تلملم أشلاءها

كي تضمك حبا

هذه الأرض

ما عرفت دربك الحُرَّ دربا

هذه الأرضُ

مغلولةٌ يدُها

و القيود الحروب

هذه الأرضُ

محروقةٌ بِيدُها

و الوقود الحروب

***

مرّغ الأرضَ

في صدرك الرحبِ

لو لحظةً

لتعطّرَ أجواءها بالأمان

ليرفرفَ أبناؤها

كالنوارسِ

حين يرشُّ الشواطئَ

فيضٌ من النور

يغمرها

في الهزيع الأخيرْ



الأبنودي يكتب عن غاندي

فارس الضياء!!

(١)

عُمر الزهور ماهمّها الإعجاب

تزرعها فى بستان وسيع

ولا فى خدِّة باب.

ولا بتعمل للحياة خاطر

ولا بتعمل للنهاية حساب

ولّا إذا ماتت

تهمّها الأسباب

تكمش فى أوراقها فى شهقة ريح

سكوت أنين المسيح

ولوعة المجاريح

وتنفرط فى النسيم

زى النشيد القديم

بالموت.. تسابق موت

وتندفن عريانه..

فى العراء!!

(٢)

زمَنك كأنه هباء

زماننا له أنياب

صبحُه مساء.

وإنت يامولاى

تمشى كأنك

جالس القرفصاء

حاشاك ولا أنت غياب

ولا أنت غباء.

الناس غير الناس

ماشى تقول إزاى؟

الكاس غير الكاس

والشاى غير الشاى

صدَّقنى يا مولاى

لم يحنث اللى حَلَف

هوّه الزمان اختلف

والكون...

وسِع خا.... لص

كإنُّه ضاق

يعمى ولايرجعش مهزوم

فارس الضياء!!

(٣)

كان جبْر ولاّ سلَف

يا.... ه ع التّمن ده اللّى

دفعناه فى الشرف

وفى الجموح

وفى الجنوح

وفى الطموح

وسطوة الإغراء!!

(٤)

وركبتك تحت دقنك

وأنت بتنوَّح

ولا أنت قادر تروح للنور

ولا تروّح

صار الزمن أصداء

والأصدقاء.. أعداء

وإنت مش مؤمن بعصر التّلف

مع إنه جاء.

الشمس تضعف يا صاحبى

بكثرة الانحناء.

الكدابين.. العصاة

أهل الدّنس.. والزُّناه

الكافرين.. الخُطاه

يتعبدوا فى معابد الأخطاء

(غاندى) بكى عندى

لسةّ بللْ دمعُه

على يدّى..

صدقنى يا والدى..

عطش الزمان ده

مايطفيهوش الماء

الحلم صفصف

والأصالة هباء.

وانت بتمشى..

جالس القرفصاء!!

(٥)

بنوفَّقوها وِفْق

غاب اللى غاب

فِضِى الديوان من لمة الأحباب

مِ الحِمل.. فضِل العبء.

ولا رفاق وعناق

ولا نَفَس ولا دفء.

يابو قلب رغم السنّ

لسةّ ماشاب:

اتجمّعوا الأذناب

داسوا عليه بلا رفق

نزِّت دما

واتشلّت الأشلاء!!

(٦)

يابو الفراسة اتسلطنوا الأفرس

وأنت اللى لا أعمى ولا أخرس

واجِه هموم الوعى..

والنّقرس.

عمر الكتاب إياه ما كان كداب

تتعدد الأسباب

والحلم

لسّه بيعطى ضِل وعشق

لا عرف فى يوم يكذب ولا يدلِّس

ولا يغتاب ولا يِخْرسْ

وفكرة العمر والخوف ع السنين

تِعبت

وفكرة الحتمية حتماً

من إيديك وقعت.

فى زحمة السَّعْى..

نحو الغدّ.. فى العتمة..

شفت الشموس أشمس.

وقبل ما تلتفت

جالك زمن أشرس.

الحلم صفصف والأصالة هباء

ماتت شموس الغلابة

فى هُوجة الأنواء.

ومازلت ماشى

جالس القرفصاء.

صبح التعيس فى المعمعة

أتعس.

بتعذبك حطاطة الأصحاب

وغرابة الأغراب

عمر الكتاب إياه ما كان كداب

لا عرف فى يوم يكذب

ولا يدلِّس.

والحلم باهت.. بسّ

بَيونِّس.

باهت كإنه شاب.

آدى الكتاب بيطوى أحلامه

لِيّام لا أيامك ولا أيامُه

ولا سنين سجنك

حتروى غيط ابنك

ولا قولة الآه يا عمِّى

حتغلب الأعداء!!

(٧)

وعلى السكارى اتسلطن الخمار

والجار يا عمِّى... جار.

والحزن

خيّم صاحى ليل ونهار

عف الذباب

على موايد القمار.

الرّكبة نِحْلت وِحْلت القدم

ياللى تركت النول

وصدقت القلم

يا«غاندى» يا معجون

بالاصطبار

نفّض هدومك م العفار

عمر الكتاب إياه ما كان كداب

سِبْنا الزمن يدوس عليه

شوية نِحرِن مَ الألم

وشوية نستسلم

للنومة ع التيار.

لم نعرف الألِف الحزين

م الياء.

ولا التّمن من التمن

ولا الزمن من الزمن

ولا الدوا.. م الداء

يا فارس الصوت

والضياء..!!

أرقام.. وتواريخ هامة في حياة غاندي

- ٢ أكتوبر عام ١٨٦٩ مولده.
- ديسمبر ١٨٨٢ زواجه.
- سفره إلي انجلترا للدراسة.
- ١٠ يونيه ١٨٩١ .. أنهى غاندي دراسة الحقوق.
- ١٠ إبريل ١٨٩٣سافر للعمل فى جنوب أفريقيا.
- يناير ١٩٠٨سُـجنَ لمدة شـهرين لدعوته لتحدى القانون الأسـود وهو قانون كان يلزم هنود الترانسفال بتسجيل أسمائهم وبصماتهم.
- يناير ١٩١٥م عاد إلى الهند وترك العمل نهائياً فى جنوب أفريقيا.
- مايو ١٩١٥اسـتقر به المقام على شـاطئ نهر سـابارماتى ..وأسـس لنفسـه مختلى « شـرم الساتياجراها».
- فبراير ١٩١٦ألقى غاندى أول خطاب عام داخل الهند بمناسبة افتتاح جامعة باتراس الهندوسية.
- دخل غاندى الحياة السـياسـية بشـكل إيجابى عندما تصـدى ذلك العام لقانون (راولات) الذى يسلب الهنود حريتهم المدنية..

- صام ٢١ يومًا فى بيت محمد على جناح فى دلهى دعوة إلى التوحيد بين الهندوس والمسلمين.
- وحد بين الجماعات المختلفة المتصـــارعة فى الهند .. وفى اليوم الاخير من ذلك العام تقدم بمشروع قرار يعلن أن هدف البلاد هو الاستقلال.
- ٢٦ يناير ١٩٣٠ وهو اليوم الذى تحتفل به الهند باعتباره عيد الجمهورية الهندية وضـــع غاندى صيغة عهد بالعمل على الاستقلال.
- ١٢مارس ١٩٣٠خرج غاندى على رأس مســيرة من ٧٩ فردًا من أتباعه قطعوا خلالها ٢٤١ ميلاً بقصد خرق القانون الذى حرم على الفقير الهندى أن يعد ملحه بنفسه وسميت مسيرة المسلح.
- ٤مايو ١٩٣٠اعتقل غاندى وتبعه ١٠٠٠٠ رجل وامرأة مما ســبب ارتباكاً لأجهزة الحكومة البرطانية.
- ٢٦ ينـاير أُفرِجَ عن غـاندى بعد أن طـالـب رمزى مكدونـالد أن يكون المؤتمر الوطنى الذى يتزعمه غاندى ممثلا فى مؤتمرالمائدة المستديرة المقبل.
- ٥مارس ١٩٣١ تم توقيع معاهدة غاندى إيروين.
- ٢٩ أغســطس ١٩٣١ســافر غاندى الممثل الوحيد للمؤتمر الوطنى فى المؤتمر الثانى للمائدة المستديرة.. ومر فى هذه الرحلة بعدن وبورسعيد.
- ٢٨ ديسمبر ١٩٣١.
- عاد إلى بومباى وقبض عليه وأُودِعَ السجن.
- محاكمته والحكم عليه بالسجن .
- صــام فى ســجن برفادا احتجاجًا على رفض الحكومة الســماح له بالقيام بحملة ضــد نظام النبذ الاجتماعى على صفحات مجلة هاريجان..
- نشوب الحرب العالمية الثانية التي جرفت غاندى إلى حلبة الأحداث السياسية مرة أخرى.
- ٧ أغســطس ١٩٤٢الاجتماع التاريخي الذى عقدته لجنة المؤتمر الوطنى لجميع طوائف الهند وفيه أطلق غاندى صيحته المشهورة « اتركوا الهند» التى أصبحت شعارًا للهند بعد ذلك.
- ٩ اغسطس١٩٤٢ قبض عليه وعلى عدد كبير من زعماء المؤتمر الوطنى.
- ديسمبر١٩٤٣ مرضت زوجته.
- فبراير ١٩٤٤ توفيت زوجته.

- ٦ مايو ١٩٤٤أُفرِجَ عنه خوفًا من موته داخل السـجن بعد أن وصـف التقرير الطبى فى ٣ مايو١٩٤٤ حالته الصحية بأنها تدعو للقلق.
- ٧ نوفمبر ١٩٤٦- ٢مارس ١٩٤٧قضـى هذه الفترة متنقلاً بين القرى عارى القدمين حاملا عبء ٧٧ سـنة من العمر يشـق المسـتنقعات ويصـل الليل بالنهار يدعو للمحبة والشـجاعة والتسـامح والحكمة ..
- ١٥ أغسطس ١٩٤٧استدعى غاندى إلى دلهى.. وفى ذلك اليوم تم الاتفاق على تقسيم الهند بين الهندوس والمسـلمين وأعلن غاندى صـومه وانه لن يعدل عن صـومه حتى يعود الناس فى كلكتا إلى رشدهم ..
- ١٣ يناير١٩٤٨ أعلن صومه من جديد إلى أن ينتهي التوتر الطائفي تماماً
- يناير ١٩٤٨وفاته..
- ٥ فبراير حرق جثمانه..
- ١٢ فبراير ذر رماده في مياه نهر الكانج.
- ٧ سنوات هي مجموع المدد التي قضاها غاندي في السجن لأسباب سياسية.. وكان يقول: إنه من الفخر أن يذهب الإنسان إلى السجن من أجل قضية محقة.

١٠. رجال حول غاندي

وقد انضـــم إلى غاندي في كفاحه مجموعة شـــباب شـــاركوه أفكاره الثورية.. كان من أبرزهم «جواهر لال نهرو».. ومحمد علي جناح..

والإثنان من أهم الشخصيات في التاريخ الهندي الحديث علي الإطلاق.

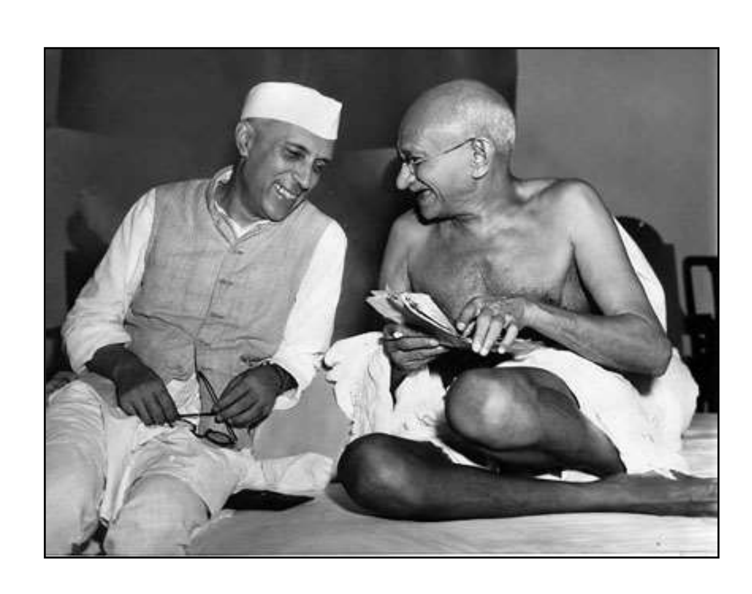
جواهر لال نـهرو:

كان (جواهر لال نهرو) هندوسي الديانة مثل غاندي..

ولد عام ١٨٨٩م.. لأسرة من الطبقات الاجتماعية المتميزة عند الهندوس..

تلقى تعليمه في انجلترا في كامبريدج وأصبح محامياً سنة ١٩١٢م.. بعدها عاد للهند وبدأ عمله بالحكومة..

رأس والده (مونيلال نهرو) المؤتمر الوطني الهندي.. وهو أحد الهيئات التي كان بوســع الهنود أن يفاوضوا عن طريقها مستعمريهم البريطانيين.



غاندي مع تلميذه النجيب نـهرو

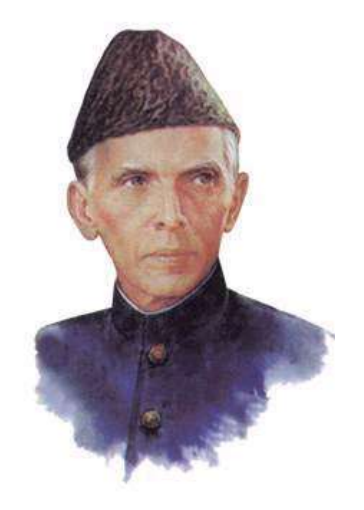
في عام ١٩٢٠ انضم نهرو إلي غاندي.. ومنذ ذلك الحين ارتبط به ارتباطاً وثيقاً ودخل السجن في حياته ثماني مرات بين عامي (١٩٢٠ – ١٩٢٧) لنضـــاله الوطني ضـــد الإنجليز وإثارته للقلاقل السياسية.. مما أكسبه شهرة سياسية عريضة في الهند .

في سنة ١٩٢٩ خلف نهرو والده كرئيس للمؤتمر الوطني للهند وفي سنة ١٩٤٧كانت سياسة نهرو في الهند تقوم على بناء أمة جديدة بإمكانها أن تكفي ذاتها اقتصاديا لم يتهيأ لنهرو أن يكون زعيما شعبياً في الهند.. بل ركز همه في التأكيد على مكانة الهند في شؤون السياسة الدولية.. وقد تمسك بسياسة الحياد في المسائل الخارجية.. رفض نهرو تأييد أي نوع من التحالف العسكري الآسيوي والذي يؤدي لتوريط بلاده مع دول غير آسيوية.. كما رفض المساعدات العسكرية من جانب أمريكا .

وفي يوم قامت المظاهرات في وجه بريطانيا من كل جانب واشترك فيها المسلمون والسيخ والهندوس ثم حدثت مظاهر عنف وقتل للشرطة فأعلن غاندي: الصيام.. فجاءه نهرو وهو لا يصدق.. وسأله هل تريد منا إيقاف المظاهرات وقد عمت كل البلد وليس بيننا وبين طرد بريطانيا إلا شعرة؟.. قال غاندي ليس المهم طرد بريطانيا بل طرد الشيطان من قلوبكم.. وليس المهم أن يتظاهر الناس ولكن كيف يتظاهرون سلميًا بدون قتل؟.. واعتبر (نهرو) يومها أن هذا سذاجة في علم السياسة.. ولكن غاندي اعتبر أن اجتماع الناس لا يعني شيئًا بل كيف يجتمعون؟ هو الأهم وطلب من (نهرو) فك المظاهرات واستمر في الصيام حتى توقفت المظاهرات.. ثم طلب (غاندي) أن يعتذر المتظاهرون علنًا لمركز الشرطة وطلب الصفح وتقديم التعويض عما حدث!.

وقد توفي جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند في السابع والعشرين من مايو سنة ١٩٦٤ وودعه الهنود بالعويل والأسى.. مما لم يكن له مثيل إلا فيما حدث عند اغتيال زعيمه السابق المهاتما غاندي فقد كانا ـ كل بأسلويه الخاص ـ أكثر من قائد لشعبه .. واستطاعا تكوين الهند الحديثة والتأثير في حياة أبنائها : غاندي بتحريرها من الحكم البريطاني ونهرو بجعلها دولة عصرية.

محمد علي جناح :



محمد علي جناح.. الرجل الذي استقل بباكستان عن الهند

والثاني هو (محمد علي جناح) ولد عام ١٨٧٦ في كراتشـــي لأســرة مســلمة ثرية من الطائفة الإسـماعيلية.. وتحتفل باكسـتان سـنوياً بمولده وقد أظهر ذكاءً وتميزاً في ثقافته.. مما أهله للدراسـة في جامعة بومباي وهو في الـ ١٦ من عمره.. إلا أن والده فضل له الالتحاق بإحدى الجامعات البريطانية.. فدرس القانون وتخرج في جامعة (لنكولنز إن) في لندن عام ١٨٩٥م مما أهله للعمل محامياً في المحاكم العليا وكان عمره آنذاك ١٩ سنة.

بدأ « جناح » عمله السياسي منذ عام ١٩٠٠م حيث انضم إلى حزب «المؤتمر القومي الهندي» ولم يُذكر أنه كان ملتزماً دينياً.. وعُرف بمعارضـته الشـديدة لتقسـيم الهند على أسـاس ديني بين المسـلمين والهندوس.

ولكن تأثر تقدم « جناح » السياسـي بعد ظهور غاندي على المسرح السياسـي الهندي.. وقد رفض غاندي وسـائل الاعتراض القانونية والسياسية التي تقدم بها جناح ضد المستعمر.. وفضل العمل على طريقته هو (المقاطعة الاقتصادية.. والعصيان المدني) فأدي هذا الاختلاف في وجهات النظر السياسية بينهما إلى استقالة جناح من حزب المؤتمر عام ١٩٢٠ وانضمامه إلى حزب «الرابطة الإسلامية» في عام ١٩٢٣ وأصبح زعيماً له بعد ثلاث سنوات من انضمامه إليه.



١١. ومضات من حياة وكتابات غاندي

عندما اختار غاندى أن يروى لنا سيرة كفاحه فى كتابه « قصة تجاربي مع الحقيقة » ذلك الكتاب الذى يعتبره المؤرخون واحداً من أهم كتب السيرة الذاتية في تاريخنا المعاصر.. اختار صيغة الصراحة المطلقة.. لم يجمل مواقف.. ولم يخجل من ذكر كل ما يتعلق بحياته.. وحياة أسرته.. في فقرها.. وغناها.. والقراءة المتأنية في عنوان سيرته الذاتية تحتم علينا أن نتوقف عند كلمة (الحقيقة) الواردة في ثنايا العنوان.. فالانحياز إلى جانب الحقيقة في كتابة السيرة الذاتية – خاصةً للزعماء – له ثمنه.. وضريبته التى يخشى الجميع دفعها.. وهى الانتقاص من قدر هؤلاء.. فعادةً ما تنظر الشعوب لزعماءها وكأنهم آلهة.. أو أنصاف آلهة.. وبالتالي ليس من حقهم أن يقعوا فيما يقع فيه الإنسان العادى من أخطاء.. وهى نبرة ذات بريق خاص.. تجد صداها الواسع في نفوس الزعماء.

وقد خط غاندى بقلم مداده كان من الحقيقة.. والحقيقة فقط.. كل تجاربه فى الحقل السياسى التى أصبحت معروفة لا فى الهند فحسب.. بل وفى كل أنحاء العالم إلى حد كبير.. تجارب لم تولد.. ولم تعش فى الظلام.. ولكن فى وضح النهار كما يصفها بنفسه.

ومن بين ما كتبه غاندي في مذكراته.. وما عاشه من تجارب حياتية نتوقف عند بعضٍ من تلك الومضات:

طبيعى كنت لا أتجرأ على أن أعمل شيئاً في السر.. لا أستطيع فعله في الجهر.. ويقيني أن هذه الأشياء كلها راجعة إلى مقاومتى .

عندما تكون في روما.. فافعل كما يفعل الرومان

خاطبني القاضى الأكبر قائلاً: يتعين عليك الآن أن تنزع عمامتك يا مستر غاندي.. فيجب أن تخضع لقوانين المحكمة فيما يتصل بالملابس التى يرتديها المحامون الممارسون.. وأدركت حدودى.. فالعمامة التى ألححت على ارتداءها في «دوربان» يتحتم علىَّ أن أخلعها نزولاً عند أمر المحكمة العليا.. لأني إذ أبيت الإذعان للأمر لم يقبل مني ذلك ولم يبرر.. ولكني أردت أن أحتفظ بقوتي لخوض معارك أعظم.. يجب أن لا أضيع براعتي كمناضل في الإلحاح على الاحتفاظ بعمامتى.. فقد كانت تلك البراعة جديرة بقضية أفضل.. والمثل يقول: عندما تكون في روما.. فافعل كما يفعل الرومان .

***

التواضع

ركب غاندي ذات يوم الدرجة الثالثة في أحد القطارات فرآه صـــحفي كان في جملة الركاب فقال له متعجبا : غاندي و تركب في الدرجة الثالثة؟

فأجاب الزعيم الهندي قائلا: لأنني لم أجد درجة رابعة !!

***

أنا لا أحقد على أحد

كنت قد ذهبت في خطابي إلى أن الحضارة الغربية على خلاف الحضارة الشرقية.. قائمة في الأعم الأغلب على أساس القوة.. وأمطروني بضروب الأسئلة.. وأذكر أن الربان قال لى : لنفرض أن البيض نفذوا وعيدهم.. فكيف تلزم مبدأك القائل باللا عنف ؟ فأجبته قائلاً : أرجو أن يمنحني الله الشـــجاعة والحصـــافة لكى أغفر لهم وأحجم عن مقاضـــاتهم.. أنا لســـت حاقداً عليهم.. كل ما في الأمر أنى أرثى لجهلهم وضـــيق تفكيرهم.. إنني أعلم أنهم يؤمنون إيماناً صـــادقاً بأن ما يفعلونه اليوم هو حق وعدل.. ومن أجل ذلك فلست أجد سبباً يدعونى إلى الحقد عليهم.. وتبسم السائل ولعله تبسم في ارتياب.

***

الزم حدودك

لقد أدركت أن حماسة الإنسان الإصلاحية نفسها ينبغي أن لا تدفعه إلى تجاوز حدوده.

***

الإنسان الكامل

المجاهد في معركة عدم العنف يجب أن يكون أقرب ما يكون من الإنســـان الكامل.. وكلما طهرنا أنفسنا من العنف.. كلما زدنا فضلاً وعندها لن يتردد أحد في الإيمان بقوة الحب.. وإذا عمت الدنيا هذه القوة لأحدثت ثورة في مثلنا العليا ولمحت الاستبداد ولقضت علي الروح المربية النامية أبدا والتي تئن تحت نيرها الأمم الغربية إلي حد الموت.

ابغضوا الإثم لا الآثم

إن الرجل وعمله شيئان متمايزان.. ففي حين يتحتم أن يقترن العمل الصالح بالاستحسان.. والعمل الطالح بالاستهجان.. فإن فاعل العمل سواء كان خيراً.. أو شراً.. يستحق دائما الاحترام.. أو الشفقة تبعاً لطبيعة حاله.. إن قاعدة « ابغضوا الإثم لا الآثم » نادرا ما تطبق على الرغم من سهولة فهمها.. وهذا هو السبب الذى من أجله ينتشر سم البغض في العالم .

***

ابدأ بنفسك

جاءت امرأةٌ ذات يومٍ لغاندي في رحلةٍ استغرقت منها مسيرة يومين.. وكان معها طفلها المريض.. وقالت لغاندي : لقد أحضرت إليك طفلي الذي يحبك كي تنصحه بأن لا يأكل السكر فإن الأطباء حذروه من أكل السكر.. ولكنه لا يقتنع بكلامهم ولا كلامي.

فقال غاندي : اذهبي وتعالي بعد أسبوعين .

قالت المرأة وهي غاضبة: أنا أتيتك مسافرة يومين بالقطار والآن تقول لى عودى بعد أسبوعين واجلبي ولدك معك.

فقال :نعم

فذهبت وعادت بالوقت المحدد وقالت له : أنا التي أتيتك منذ أسبوعين.

فقال : أتيتيني بشأن ولدك والسكر؟

فقالت : نعم وهي مستغربة كيف استطاع أن يتذكرها مع أنه لم يرها سوى ثوان ولم يعرها أي انتباه.

فقال للولد : يا ولد أتحبني؟ فقال الولد : نعم قال : أنا لا أأكل السكر فإن كنت تحبني فلا تأكله.

فقالت الأم : ولماذا أرجعتني بالمرة الماضية ؟

قال غاندى : في المرة الماضية كنت آكل السكر.. ولحبي لولدك منعت نفسي من أكل السكر حتى أستطيع أن أنصحه بما لا يعيبني.

***

الماء.. والتراب

عندما مرضت زوجته مرضاً خطيراً ذات مرة.. وكان يعالجها بطرقه الخاصة بالاعتماد على الماء والتراب.. وتوســـل لها أن تجتنب الحبوب والملح.. ولكنها رفضـــت.. وليســـاعدها فقد قاطع الحبوب والملح عاماً كاملاً.. مما جعلها تلتزم بنصيحته .

وخاطب شـاعر الهند الأكبر طاغور غاندي قائلاً: «إن كلامك بسـيط يا سـيدي.. وليس بسـيطاً كلام أولئك الذين يتحدثون عنك».

***

الكمال

إنى في مجال «اللاعنف.. التبتل.. ألا تملك» وغيرها من الفضـــائل الرئيســـية.. أعى أكمل الوعى نضالاً موصولاً من أجل تنميتهما..

***

حذاء غاندى

ولغاندي قصة شهيرة مع حذاءه وردت أيضاً في سيرته الشخصية قبل أن نتحدث عنها نتوقف عند قصــة أخرى ذات مغزى.. حيث يحكى أن ملكاً كان يحكم دولة واسـعة جداً.. أراد هذا الملك يوماً القيام برحلة برية طويلة.. وخلال عودته وجد أن أقدامه تورمت بســـبب المشـــي في الطرق الوعرة.. فاسـتصـعب الأمر عليه إشـفاقاً منه على رعيته.. فهو يتجول حافياً طيلة الليل والنهار في بلاط قصـره المصنوع من الرخام الناعم.. فكيف برعيته الحفاة الذين يعيشون يومهم بين الكد.. والشقاء في الشوارع القاحلة.. فأصـدر مرسـوماً يقضـي بتغطية كل شـوارع مدينته بالجلد.. ولكن أحد مسـتشـاريه أشـار عليه برأي أفضـل.. وهو عمل قطعة جلد صـغيرة تحت قدمي كل شـخص من رعيتـه.. فكانت هذه بداية نعل الأحذية.

والشاهد من هذه القصة أنك إذا كنت حاكماً فيجب عليك أن تفكر في رعيتك.. مثلما تفكر في نفسك.. وأردت أن تعيش ســـعيداً في العالم فلا تحاول تغيير العالم كله.. بل أبدأ بنفســـك.. ومن ثم حاول تغيير العالم بأسره.

والواقعة المرتبطة حكاها غاندي في كتابه بأنه كان ذات مرةٍ يجري بســـرعة للحاق بالقطار الذى كان قد بدأ في المسـير.. وعند صـعوده القطار سـقطت من قدمه إحدى فردتي حذائه.. فما كان منه إلا خلع الفردة الثانية.. وبسرعة رماها بجوار الفردة الأولى على سكة القطار.. فتعجب أصدقاؤه.. وسألوه:

- ما هذا الذى فعلته؟.. لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟

فقال غاندي :

– أحببت للفقير الذي يجد الحذاء أن يجد فردتين فيستطيع الانتفاع يهما.. فلو وجد فردة واحدة فلن تفيده.. ولن أستفيد أنا منها أيضاً..

والشاهد من هذه القصة أن الحزن لا يعيد لنا ما ضاع..

***

غير أدواتك

جلس رجل أعمى على إحدى عتبات عمارة واضـــعاً قبعته بين قدميه وبجانبه لوحة مكتوب عليها : « أنا أعمى أرجوكم ساعدوني».

فمر رجل بالأعمى ووقف ليرى أن قبعته لا تحوي سـوى قروش قليلة فوضـع المزيد فيها.. ثم دون أن يســتأذن الأعمى أخذ لوحته وكتب عليها عبارة أخرى وأعادها مكانها ومضـــى في طريقه.. لاحظ الأعمى أن قبعته قد امتلأت بالقروش والأوراق النقدية.. فعرف أن شـيئاً قد تغير.. وأدرك أن ما سـمعه من الكتابة هو ذلك التغيير فسأل أحد المارة عما هو مكتوب عليها فكانت الآتي: «نحن في فصل الربيع لكنني لا أستطيع رؤية جماله».. غير وسائلك عندما لا تسير الأمور كما يجب

***

كُن نسراً.. لا دجاجة

يُحكى أن نســراً كان يعيش في إحدى الجبال ويضـــع عشـــه على قمة إحدى الأشـــجار.. وكان عش النسـر يحتوي على ٤ بيضـات.. ثم حدث أن هز زلزال عنيف الأرض فسـقطت بيضـة من عش النسـر تدحرجت إلى أن اســتقرت في عُشـــة دجاج.. وظنت الدجاجات بأن عليها أن تحمي وتعتني ببيضـــة النسر.. تطوعت دجاجة كبيرة في السن للعناية بالبيضة إلى أن تفقس. وفي أحد الأيام فقست البيضة

وخرج منها نسر صغير جميل.. ولكن هذا النسر بدأ يتربى على أنه دجاجة.. وأصبح يعرف أنه ليس إلا دجاجة.. وفي أحد الأيام وفيما كان يلعب في ساحة عشة الدجاج شاهد مجموعة من النسور تحلق عالياً في السماء.. تمنى هذا النسر لو يستطيع التحليق عالياً مثل هؤلاء النسور.. لكنه قوبل بضحكات الاستهزاء من الدجاج قائلين له: ما أنت سوى دجاجة ولن تستطيع التحليق عالياً مثل النسور.. وبعدها توقف النسر عن حلم التحليق في الأعالي.. وآلمه اليأس ولم يلبث أن مات بعد أن عاش حياة طويلة مثل الدجاج.. إنك إن ركنت إلى واقعك السلبي ستصبح أسيراً وفقاً لما تؤمن به.. فإذا كنت نسراً وتحلم لكي تحلق عالياً في سماء النجاح فتابع أحلامك ولا تستمع لكلمات الدجاج.. والخاذلين لطموحك ممن حولك.. حيث أن القدرة والطاقة على تحقيق ذلك متواجدتين لديك بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى.. واعلم بأن نظرتك الشخصية لذاتك وطموحك هما اللذان يحددان نجاحك من فشلك!.. لذا فاسع أن تصقل نفسك.. وأن ترفع من احترامك ونظرتك لذاتك فهي السبيل لنجاحك.. ورافق من يقوي عزيمتك.

***

مبادئ غاندى الخاصة

ليس من الممكن فصل فلسفة غاندي عن حياته[١١].. والتى كانت تجريباً مستمراً لوضع الأفكار موضع التطبيق وتطويرها من خلال ذلك.. تصميم الزعيم الكبير على وضع رؤيته للحياة موضع التطبيق.. لا لتحويل مسار حياته فحسب.. وإنما لتحويل مسار حياة بلاده بأسره.. ولم يتزعزع اعتقاده قط بأن الحقيقة والحب هما القوتان الأعظم اقتداراً.. واللتان تؤثران في حياة البشر.. كما لم يتزعزع تمسكه بمبدأ المساواة المطلقة لكل الأشخاص بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو المنبت.

وقد كرس غاندى حياته للتجريب المتعلق بالنفس وللممارسة الموجهة إلى اكتشاف الحقيقة وتنمية حب عميق للآخرين.. بل وحب الأشرار.. وفقاً لمبادئ أساسية عاش بها حياته وهى:

- محاربة الشر بكل قوته.. ولكن مع حب من يقترف الشر من أعماق قلبه..
- الحب يتعين أن يقهر الكره.. وأن اللامقاومة ستقهر الشر..
- التصرف في توافق بحسب طبيعة المرء وهدفه وفي الوقت نفسه التصرف في توافق مع طبيعة كل الكائنات الأخرى وهدفها..
- المرء يتعين عليه أن يكون متيقظاً على الدوام.. وعلى حذر في مواجهة مطالب الكبرياء والطمع.. التى تتقدم بها الذات المتمركزة حول نفسها.

(١١) كتابه «فكر الشرق القديم» (ت. د. إمام عبد الفتاح).

- العنف لا يدعو إلا إلى المزيد من العنف.. ومن ثم يزيد من ضعف الفرد والمجتمع..
- الحب يدعو إلى المزيد من الحب.. ويقوى كلا من الذات والآخرين.

إنه حب ينطلق من أعماق ذات المرء.. ويعبر عنها في الود والتعاطف والخدمة المتجردة من الذاتية للآخرين.



غاندى واليهود.. واتهامه بمعاداة السامية

تكتسب آراء غاندي الإنسانية أهمية قصوى[١٢] في التصدي للدعاية الصهيونية وتفنيد بعض الادعاءات التي يستند إليها المشروع الصهيوني.. وهو ما يتم استخدامه إعلامياً بكثرة هذه الآونة في الغرب من خلال المعادين للكيان الصهيوني.. ونحن كعرب.. ومسلمين أولى بهذا.. حيث أنه نظراً للمكانة التي يحظى بها زعماء من أمثال غاندي في الأوساط الغربية.. فمن الضروري أن يسعى الإعلام العربي لإلقاء الضوء على هذه الأفكار والمواقف في الدوائر الغربية.. باعتبار ذلك أحد الأساليب التي قد تغير من إدراك الغرب للصراع العربي الإسرائيلي.

ويقول د/ رفعت سيد أحمد [١٣] أن آراء غاندى في هذا الصدد ليست مفاجأة.. فهناك بالفعل كثيرون من قادة الفكر والسياسة انحازوا لحقوق الشعب الفلسطينى.. لأنها حقوق عادلة وإنسانية ولكن المفاجأة تأتى من أن أحد أبرز رموز المقاومة العالمية كان يقف وبإنسانية فريدة مع هذه الحقوق.. وكان يرفض الاحتلال الصهيونى لفلسطين.. ومبكراً جداً تحديداً مع بدايات إنشاء هذا الكيان العدوانى فى ثلاثينيات القرن الماضى.. وسجل غاندى مفاجأته فى وثيقة هى عبارة عن مقال مطول.. يدلى فيه برأيه فى الاحتلال الصهيونى لفلسطين.. ويرفض هذا الاحتلال ويعتبره ظلماً إنسانيا كبيراً لأنه يقتلع شعباً صاحب أرض ويزرع مكانه شعباً آخر هو هنا هذه العصابات الصهيونية.. إن هذه الرؤية إذا ما استحضرناها اليوم فى أجواء التخاذل الرسمى العربى والتواطؤ الدولى تجاه الحقوق العادلة للشعب الفلسطينى.. وتسابق نفر من النخبة «الاستراتيجية» العربية ناحية التطبيع وتأليههم لكامب ديفيد رغم مصائبها على أمننا القومى.. تعد فى تقديرنا.. وثيقة مهمة.. لا تموت.. وثيقة تستحق الاحتفاء والتكريم.. وقبل أن نعرض لأبرز محتويات هذا المقال «الوثيقة» لغاندى يهمنا الإشارة والإشادة بالترجمة الرائعة له التى أعدها له المثقف السورى البارز د. محمود المقداد الأستاذ بجامعة دمشق.

إن غاندى فى مقالته الرائعة كان يتنبأ بمسار هذا الظلم.. وخطره وأنه سيولد صراعاً لن ينتهى بين «حق عربى» أصيل و«ظلم يهودى» مجرم ومستمر..

(١٢) الساميون أولاد سام بن نوح.. بينما الأوربيون أولاد يافث بن نوح.. ومعاداة السامية (المعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو «ضد السامية» وتُترجَم أحياناً إلى «اللاسامية» والعبارة Anti-Semitism) بمعناها الحرفي.. تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى.. بينما يُشكك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه.. ومصطلح معاداة اليهود أكثر دقة وأكثر حيادًا ولا يحمل أية أطروحات خاطئة.. كما هو الحال مع مصطلح أنتي سيميتزم. وهي مفهوم ثقافي غربي يتعلق باضطهاد الجماعات اليهودية في أوربا لكونها يهودية.. يرتكز المصطلح على علم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. وعلى الأفكار العنصرية فيما يتعلق بنقاء الأعراق.. كما يعكس الاسم قبولا للتفسير التوراتي للتنوع البشري .

(١٣) جريدة المصري اليوم عدد١١/ ٤/ ٢٠٠٩

ونتوقف هنا عند ما قاله غاندي في هذه الوثيقة (المقال) ونتحدث أولاً عن الأسباب التى جعلت غاندى منذ ما يزيد عن السبعين عاماً يتنبه لخطورة تلك القضية.. ويتحدث عنها مراراً.. وتكراراً.

يعلى مدار التاريخ كانت فلسطين دوماً بحكم موقعها نقطة انطلاق لأصحاب الأحلام الإمبراطورية [١٤] لذا ساند كثيرٌ من المفكرين الاستعماريين الإنجليز فكرة إنشاء دولة يهودية في فلسطين تضم اليهود بوصفها أفضل وسيلة لتأمين الطريق إلى الهند درة التاج البريطاني.

ولأن الاستعمار الغربي كان يرى فلسطين باعتبارها بوابة غزو الشرق وتأمين خطوط الإمداد للهند.. فقد حرصت الحركة القومية الهندية على أن تبقى فلسطين عربية حتى لا تستخدم كقاعدة للهجوم على الهند أو الإضرار بها.

وفي فبراير ١٩٣٨ أصدر «حزب المؤتمر الهندي» قراراً يدين بريطانيا لقيامها بتبني مشروع لتقسيم فلسطين.. وسجل الحزب إدانته الشديدة لاستخدام سياسة القمع في فلسطين لإجبار العرب على قبول الوضع الجديد.. وعبّر الحزب عن تعاطفه الكامل مع العرب في صراعهم ضد الاستعمار من أجل الحرية.

وفي سبتمبر من العام نفسه.. تبنى الحزب قراراً يطالب بريطانيا بالتخلي عن سياستها وترك الأمر لليهود والعرب لإصلاح ما بينهم من مشكلات.. كما ناشد الحزب اليهود «بألا يتخذوا من الإمبريالية البريطانية ملاذاً لهم».

وبالطبع كان غاندي برفضه الاستعمار والعنف هو العامل الأساسي المؤثر في تشكيل وجهة النظر الهندية نحو القضية الفلسطينية.

المقال نشر بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٣٨ فى صحيفة «هاريجان الأسبوعية» التى كان يصدرها غاندى بثلاث لغات: الإنجليزية - الهندية - الجوجاراتية.. وهذه ترجمة لبعض أبرز ما احتواه المقال من نقاط أساسية على لسان الزعيم الهندى:

- كنت قد تلقيت رسائل كثيرة تسألنى أن أعلن وجهات نظرى فى المسألة اليهودية - العربية بفلسطين.. وفى اضطهاد اليهود بألمانيا.. ولم تكن مغامرتى فى إعلان وجهات نظرى فى هذه المسألة الصعبة جداً من غير تردد.

---

(١٤) مثلاً حينما فكر الإسكندر الأكبر في تكوين إمبراطوريته الهيلينية فتح فلسطين ومصر.. وهكذا فعل الرومان من بعده.. وقد تصاعدت الرغبة في الاستيلاء على فلسطين مع زيادة شراهة التشكيل الاستعماري الغربي الحديث.. وكذلك حاول نابليون أن يستولي على فلسطين.. ليؤسس فيها دولة يهودية حتى يسد على الإنجليز الطريق إلى الهند.

- إن تعاطفى مع اليهود تعاطف تام.. فأنا أعرفهم معرفة حميمة من جنوب أفريقيا.. وقد أصــبح بعضــهم أصــحاباً لى مدى الحياة.. وقد قرأت من خلالهم كثيراً عن اضــطهادهم الطويل.. وقد كانوا منبوذين من المســيحية.. وكان التشــابه بين معاملة المســيحيين لهم ومعاملة الهندوس لطبقة المنبوذين قريباً جداً.. وكانت مقاطعتهم تستند إلى حجج دينية تسوغ المعاملة غير الإنسانية التى لحقت بهم.
- ولذا وبعيداً عن الصداقات.. كانت هذه المعاملة هى السبب الأعم والأشمل لتعاطفى مع اليهود.
- غير أن تعاطفى هذا لا يعمينى عن متطلبات العدالة.. لأن بكاءهم من أجل الوطن القومى لليهود لا يروق لى كثيراً.. إن الإذن بهذا الوطن متجذر فى الكتاب المقدس.. وفى الإصرار الذى يتوق به اليهود إلى العودة إلى فلســطين: فلماذا لا يتخذون.. كغيرهم من شــعوب الأرض.. وطناً لهم من البلدان التى ولدوا فيها والتى يكسبون فيها عيشهم؟
- إن فلسطين تخص العرب بالمعنى نفسه الذى تخص فيه إنجلترا الإنجليز أو تخص فيه فرنسا الفرنســيين.. وأنه لمن الخطأ وغير الإنســانى أن يفرض اليهود على العرب. إن ما يجرى اليوم فى فلســطين لا يمكن تســويغه بأى قانون أخلاقى فى الســلوك.. فالانتداب غير جائز.. لأنه نتيجة الحرب الأخيرة «يقصد الحرب العالمية الأولى».. ومن المؤكد أن تحويل أرض العرب الأباة الذين تمتلئ بهم فلسطين إلى اليهود جزئياً أو كليا.. على أنها وطنهم القومى.. إنما هو جريمة ضد الإنسانية.

ومن هذا المنظور أدان غاندي الصهيونية واتجاهاتها العدوانية واللا أخلاقية.. وكتب يقول:

«إن الدعوة إلى إنشاء وطن لليهود لا تعني الكثير بالنسبة لي.. إذ إن فلسطين تنتمي للعرب تماماً.. كما تنتمي إنجلترا للإنجليز أو فرنســا للفرنســيين.. ومن الخطأ فرض اليهود على العرب.. وما يجري الآن في فلسطين لا علاقة له بأية منظومة أخلاقية».

ويمضــــى غاندي في مقاله مفنداً الادعاء الصــــهيوني بأن إقامة «وطن قومي» لليهود على أرض فلسطين يُعد حلاً لمشاكل الجماعات اليهودية في أوروبا.. فيقول:

«إن التصرف النبيل يقضي بأن يتلقى اليهود معاملة عادلة.. حيث وُلدوا وتربوا.. وإذا كان اليهود قد عانوا على يد العالم الغربي.. فعلى الغربيين إذن أن يعوضوهم عما اقترفوه في حقهم من جرائم».

ويحذر

وفي المقال نفسه حذر غاندي يهود فلسطين من الصهيونية والعدوانية العرقية.. وتساءل : «لماذا لا يقوم اليهود الصهاينة -شأنهم شأن كل شعوب الأرض- بأن يجعلوا وطنهم البلد الذي وُلدوا فيه ويكسبون رزقهم على أرضه». ثم أضاف:

«إذا لم يكن لليهود أي وطن غير فلسطين كما يدعون.. فهل يمكنهم أن يتقبلوا فكرة طردهم من بقية أرجاء العالم».

ثم دفع غاندي بهذه الطرح المنطقي إلى نهايته الطبيعية حين قال:

«إن الدعوة لإنشاء وطن قومي لليهود سيقدم مبرراً قوياً لطرد اليهود من ألمانيا».

وفي نفس المقال الذى ننقل بعض فقراته ميز غاندي بين الارتباط الديني اليهودي بفلسطين.. والرغبة الصهيونية الاستعمارية في الاستيلاء عليها.. ويقول :

«إن فلسطين التي يرد ذكرها في الكتب المقدسة ليست موقعاً جغرافياً.. إنها في قلب اليهود.. وعن طريق التفاوض يمكنهم أن يحولوا المشاعر العربية لصالحهم.. فالفعل الديني لا يمكن أن يتم عن طريق السلاح أو العنف».

واستمر غاندي قائلاً إنه رغم أنه كان يتمنى أن يختار العرب المقاومة السلمية.. فإنه لا يمكن أن يلقي باللوم على المقاومة التي انتهجوها.. فقد تآمر اليهود مع البريطانيين على نهب حقوق وأرض أناس لم يلحقوا بهم أي أذى.

وعندما سُئِلَ غاندي في الأربعينيات عن رأيه في القضية الفلسطينية أجاب بأنها أصبحت قضية لا حل لها.. واستطرد موضحاً سبب ذلك في رأيه فيقول : « لو كنت يهودياً لقلت للصهاينة كفاكم سخفاً.. ولا تلجؤوا للإرهاب لأنكم بذلك تضرون بقضيتكم التي كان من الممكن أن تصبح قضية عادلة دون اللجوء لمثل هذه الوسائل».

وقد حاول الفيلسوف الصهيوني مارتن بوبر(١٥) إقناع غاندي بوجهة النظر الصهيونية فكتب له قائلاً:

---

(١٥) مارتن بوبر كان فيلسوف يهودي ولد في فيينا بالنمسا في ٨ فبراير ١٨٧٨ وعاش هناك لبعض الوقت قبل أن يسافر مع أجداده وهو في سن الأربع سنوات إلى أوكرانيا.. في عام ١٩٣٨ استقر في القدس.. شارك بوبر في تأسيس الحركة الصهيونية التي من أهم مبادئها الزعم بأن اليهود شعب وله الحق في أن يكون له وطن.. وكان أيضاً من أوائل المؤسسين للحركة اليهودية التي تدعى هازيدية.. خصص بوبر جزءاً كبيراً من حياته لإبراز ما يسمونه القيمة الثقافية للديانة اليهودية والاعتراف بها.. كتب العديد من الكتب ومنها: أنا وأنت عام ١٩٢٣ وكتاب أقوال الهاسيديزم عام ١٩٦١ توفيَّ يوم ١٣ يونيو ١٩٦٥ في القدس.

«إن المستوطنين الصهاينة لم يأتوا إلى فلسطين بوصفهم مستعمرين.. ولم يأتوا من الغرب ليقوم السكان الأصليون بالعمل نيابة عنهم.. إنهم يعملون بأيديهم ويحملون المحراث على أكتافهم».. ثم أضاف بوبر في لغة صوفية «هذه الأرض تعرفنا لأننا نعرفها».

ولم يكلف غاندي خاطره بالرد على خطاب بوبر لأنه كان يعلم تمام العلم أن الصهاينة هم في نهاية الأمر مجموعة من المستعمرين الاستيطانيين الإحلاليين الذين يسعون إلى الاستيلاء على أرض الغير.. وذلك رغم كل اعتذاراتهم المصقولة.. ورغم كل الذرائع الدينية والتاريخية التي يخفون وراءها حقيقة مشروعهم الاستعماري.

غاندى حزين من أجل اليهود

وفي يوليو ١٩٤٦ كتب غاندي مقالاً بيّن فيه موقفه من العنف الصهيوني.. عبر فيه عن حزنه لمعاناة اليهود في أوروبا.. وأشار إلى أن التحامل على اليهود المبني على قراءة خاطئة للعهد القديم هو وصمة عار في جبين العالم المسيحي بأجمعه.. ثم أضاف «لقد تصورنا أن المحنة ستعلم اليهود درس السلام».. ولكن ما حدث هو العكس.. إذ يحاول اليهود فرض أنفسهم على فلسطين بمساعدة الأسلحة البريطانية والأموال الأمريكية.. وعن طريق الإرهاب المباشر.

لماذا اتهموه باللا سامية[١٦]؟

(١٦) فيما بعد وتحديداً عام ٢٠٠٨ كان من تبعات هذا الاتهام زيادة الضغوط التي مارسها اللوبي اليهودي وإجبار أرون غاندي حفيد الزعيم الهندي غاندي على الاستقالة.. من منصبه في جامعة روتشستر وذلك في أعقاب تصريحاته التي انتقد فيها إسرائيل وعنف اليهود.. والتي قال فيها : إن اليهود الآن هم أهم لاعب في عالم العنف.. وقد أثارت الاستقالة ردود فعل من قبل المنظمات الحقوقية وبعض الشخصيات البارزة بالولايات المتحدة والذين اتهموا اللوبي اليهودي بمحاولة قمع حرية التعبير وتنميط أي نقد لسياسات إسرائيل العنصرية على أنها معاداة للسامية.. وكانت وكالة «أنباء أمريكا إن أرابيك» أول من أورد خبر تعليقات غاندي ومن رصد ردود فعل المنظمات اليهودية النشطة في الولايات المتحدة.. كما رصدت الوكالة انتفاء أي دعم عربي أو إسلامي لغاندي..وكان العديد من منظمات يهودية أمريكية نافذة قد شنت حملة شجب قوية لتصريحات أرون غاندي.. حفيد الزعيم الهندي الديني مهاتما غاندي.. والتي قال فيها : إن «الهوية اليهودية» انغلقت في الماضي على الهلوكوست.. وتعيش في الحاضر على القنابل والقتل وأن اليهود الآن هم «أكبر اللاعبين» في «عالم العنف».. غير أن ١٦ منظمة من منظمات وأعضاء جاليات المهاجرين من جنوب آسيا بالولايات المتحدة وأكثر من ١٠٠ شخصية من الشخصيات العالمية البارزة.. ليس من بينها عرب.. أعلنوا في بيان مشترك لهم.. عن تصديقهم على البيان الذي أصدرته سونينا مير.. الأستاذ المساعد بجامعة= =كاليفورنيا.. والتي تدين فيه الأسلوب الذي أجبر أرون غاندي.. رئيس ومؤسس معهد غاندي للاعنف بجامعة روتشيستر.. على الاستقالة بسبب آرائه حول إسرائيل.. وقال البيان : إن ضغط منظمات اللوبي اليهودي مثل رابطة مكافحة التشهير.. إحدى كبرى منظمات اللوبي اليهودي بالولايات المتحدة.. واللجنة الأمريكية اليهودية.. ومنظمات هندوسية أخرى أدت إلى إجبار غاندي إلى الاستقالة من منصبه كرئيس لمعهد اللاعنف الذي أسسه.. واتهمته بأنه «معادي للسامية».. على الرغم من اعتذاره سابقا عن إساءة فهم تصريحاته.. والتي أكد فيها أن سياسات إسرائيل العنصرية لا تعكس وجهة نظر اليهود في العالم.. وأضاف البيان: «من العار أن مجموعة مثل مؤسسة الأمريكيين الهندوس والتي تدعي الترويج للتسامح والتفاهم أن تساند مثل هذه الرقابة الواضحة لحفيد غاندي.. ربما اختاروا أن يتجاهلوا تصريح مهاتما غاندي في عام ١٩٤٦ عندما قال إن المستوطنين اليهود ارتكبوا خطأ فاضحا في سعيهم أن يفرضوا أنفسهم على الفلسطينيين بمساعدة الأمريكيين والبريطانيين والآن بمساعدة الإرهاب الصريح».

اســـتندت الدعاية الصــــهيونية إلى بعض العبارات الواردة في مقالات غاندي وتصـــريحاته - بعد اقتطاعها من ســـياقها- لاتهامه بمعاداة الســـامية«.. وهي تهمة جاهزة تُوجه لكل من يجرؤ على انتقاد المشروع الصـهيوني.. ولم يسلم منها كثير من الكتاب والمفكرين والسياسيين على مر العصور.. من شكسبير وحتى كورت فالدهايم وروجيه جارودي».

غير أن أية نظرة منصـــفة لهذه العبارات والمواقف في إطار الرؤية الكلية لغاندي تبين أنه بعيد كل البعد عن أية نزعات عنصـرية.. خاصـةً أن غاندي اسـتخدم كلمة «اليهود» للإشـارة إلى المسـتوطنين الصهاينة على وجه الخصوص.. وليس اليهود بشكل عام ومطلق.. ولعل تعاطفه مع محنة يهود أوروبا أكبر دليل على تمييزه بين اليهود كجماعة بشـــرية.. والمســـتوطنين الصــــهاينة كجزء من مشـــروع اسـتعماري كان يمقته.. وهو في هذا لا يختلف عن كثير من العرب الذين يشـيرون إلى «اليهود» وهم يعنون في واقع الأمر الصهاينة.

وبالطبع كان الدافع الأساسي لتعاطف غاندي مع معاناة يهود أوروبا هو نزعته الإنسانية.. ورفضه لكل أشكال العنف والاضطهاد وإيمانه بفكرة المقاومة السلمية.. إلا أن ذلك لم يدفعه للتخلي عن تعاطفه مع عرب فلسطين ومع حقوقهم المشروعة ورفضه لما يتعرضون له من عدوان.

ويعد هذا موقفاً أخلاقياً مركباً ومتســـقاً يعجز الكثيرون في الغرب عن التوصـــــل إليه.. فإذا كان اضـطهاد الجماعات اليهودية في بعض بلدان أوروبا أمراً يستوجب الإدانة والرفض.. فإن هذا الموقف لا يكتمل إلا برفض وإدانة أي شـكل من أشـكال الاضـطهاد تتعرض له أية جماعة بشـرية أخرى.. ولا سيما إذا كان ضحايا الأمس هم أنفسهم من يرتكبون جرائم اليوم ويلتمسون لها مختلف الأعذار.

وفي المقابل نجد غاندي في حقيقته يكنّ احتقاراً عميقاً للصهيونية ولكل ما تتسم به من انتهازية.. فقد أدرك أن الدولة الصـــــهيونية أنشـــئت عن طريق «الأســـلحة البريطانية» التي دفعت فاتورتها كل من بريطانيا وأميركا.. ومن ثم أحس أن «الدولة اليهودية» المنشــــودة لن تكون ســـوى إضــــافة جديدة لمستعمرات الرجل الأبيض وقاعدة لحماية المصالح الاستعمارية.

كما أدان كل أشـكال العنف الصـهيوني في فلسـطين.. واعتبر ذلك نوعاً من الإرهاب.. ولا شـك أن مثل هذه الإدانة تمثل صدمة للعالم الغربي الذي يقبل الإرهاب الصهيوني للعرب.. وإجلاء الفلسطينيين عن ديارهم بالقوة العسـكرية.. وتدمير قراهم وحقولهم ومصـادرة حقوقهم.. في حين يصـنف المقاومة الفلسطينية لهذه الأعمال باعتبارها إرهاباً.

ورغم نبذ غاندي لأشــكال المقاومة العنيفة فإن موقفه يعكس تفهماً واعياً للدوافع التي حدت بالفلســطينيين إلى انتهاج هذا الشــكل من أشــكال المقاومة في مواجهة عدوان يهدف إلى محوهم من المكان والزمان على حد سواء.

وتبين آراء غاندي أنه لا يمكن اعتبار العداء العربي للصــهيونية ولإســرائيل أمراً غير عقلاني أو بدافع من نزعة قومية متعصبة أو من «عقد» ورواسب نفسية.. فالقادة غير العرب -من أمثال غاندي- يشتركون مع العرب في وجهات النظر لأن القضية الفلسطينية قضية أخلاقية بالدرجة الأولى.. حيث إنها تنطوي على قاعدة أخلاقية بسيطة ألا وهي أن الإنسان يجب ألا يخضع للعنف والظلم وأنه يجب أن يدافع عن أرضه وكرامته ضد المستعمرين والمستغلين.

فالعداء العربي لإسرائيل متجذر في الواقع التاريخي والاجتماعي للقارة الآسيوية.. ولا يمكن توجيه تهمة العدوانية لمن يدافعون عن وطنهم ويقاومون كتلاً بشــرية وفدت من أوروبا - بدعم اســتعماري غربي- وادعى أعضاؤها أن هذا الجزء من آسيا يخصهم منذ ألفي عام.

ويستطرد د. رفعت سيد أحمد مقاله بقوله:

اليوم نجد أن تحذير غاندى هذا لليهود لم تتم الاستجابة له.. فبعد أكثر من ستين عامًا.. تحول الكيان الصــهيونى بالفعل إلى (نزعة التوحش) كما تنبأ غاندى ومن المؤكد (أن الله قد أهمله).. بل إن الله قد رفضــه.. وطالب بقتاله ومقاومته لما مارســه - ولايزال - من إرهاب منظم وعدوان دائم على شــعب برىء مما يزعم اليهود أنهم تعرضــوا له من هتلر.. إن هذه الرؤية لغاندى.. فى تقديرنا.. وثيقة بالغة الدلالة والأهمية.. خاصة فى هذا التوقيت الصعب الذى تمر به القضية الفلسطينية.. والذى يتكالب فيه (القتلة) على شعبها المناضل الصامد.. ويستسلم فيه من كان يزعم وصلاً بالمقاومة والجهاد.

وتأتى الرؤية لتؤكد وبأثر رجعى (المظلومية) التى تمثلها.. وهى مظلومية تنشــئ حقًا.. لا يســقط بالتقادم.. حق شــعب يطالب بأرضــه التى أُخرِجَ منها.. وحق شــهداء قضــوا دفاعًا عنها ومصــالح ومقدسات دمرت بأيدى يصغر إلى جوار إثمها فعل هتلر فى الهولوكست.

نحتاج اليوم إلى أن نعيد إحياء مثل هذه الرؤى/ الوثائق.. ونزيح الأتربة عنها.. تأكيدًا - وتقوية - للبعد الإنســانى لهذه القضــية العادلة.. والتى لولا عدالتها لما انحاز إليها زعيم عالمى فى قامة غاندى.. والاهتمام بمثل هذه الوثائق.. لا يعنى الاســتغراق فيها بعيدًا عن تطورات الواقع المعاصــر.. بل تعنى الربط الموضوعى بين تلك الرؤى وهذا الواقع.

خاصة مع صعود اليمين الصهيونى بزعامة نتنياهو وليبرمان.. وبعد مجازر غزة.. والتخلى العربى العام عن القضــية.. والذى لم يعُد يقدم لها ســوى بيانات الشــجب والإدانة.. بل صــار شــحيحًا فى تلك البيانات.. إن غاندى بوثيقته تلك يقدم من حيث لم يرد ليس فحسب إدانة تاريخية للمشروع الصهيونى.

بل نزع عنه أيضًا مشروعيته وحقه فى الوجود.. وهو يقدم كذلك من حيث لم يرد وثيقة إدانة شديدة البلاغة لهؤلاء الحكام العرب ومثقفيهم الذين انحنوا وانكســروا أمام هذا المشــروع ولم يكتفوا بذلك بل مارســوا القهر على شــعوبهم والحصـــار على الشــعب الفلســطينى كى يقبل بالجريمة التى اســمها (إسرائيل).. وأن يقدم نفسه طائعًا على مذبحها.. تحية لغاندى فى قبره.. تحية لرؤيته التى لا تصدر إلا عن نفس حرة.. وضمير يقظ.. استحق صاحبه عن جدارة مكانته التى بوأه إياها التاريخ.

انتهى تعليق د. رفعت سيد أحمد.. ولا تعليق لنا بعده.

دعاء غاندي

وننهي رحلتنا مع المهاتما غاندي بدعاء مأثور يعتبر أجمل ما قال هذا الزعيم الأسطوري.. ويقول فيه:

يارب إذا أعطيتني المال لا تأخذ سعادتي..

وإذا أعطيتني القوة لا تأخذ عقلي..

وإذا أعطيتني تواضعاً لا تأخذ اعتزازي بكرامتي..

يارب لا تدعني أصاب بالغرور إذا نجحت..

ولا أصاب باليأس إذا فشلت..

بل ذكرني دائماً بأن الفشل هو التجارب التي تسبق النجاح..

يارب علمني أن التســـامح هو أكبر مراتب القوة.. وأن حب الانتقام هو أول مظاهر الضعف..

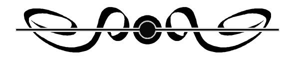
يارب إذا جردتني من المال اترك لي الأمل.. وإذا جردتني من النجاح اترك لى قوه العناد حتى أتغلب على الفشل..

يارب إذا أسأت إلى الناس أعطني شجاعة الاعتذار.. وإذا أساء الناس لى أعطنى شجاعة العفو والغفران..

يارب علمني كيف أحب الناس كما أحب نفسي.. وعلمني أحاسب نفسي كما أحاسب الناس

يارب ساعدني أن أقول الحق فى وجه الأقوياء..

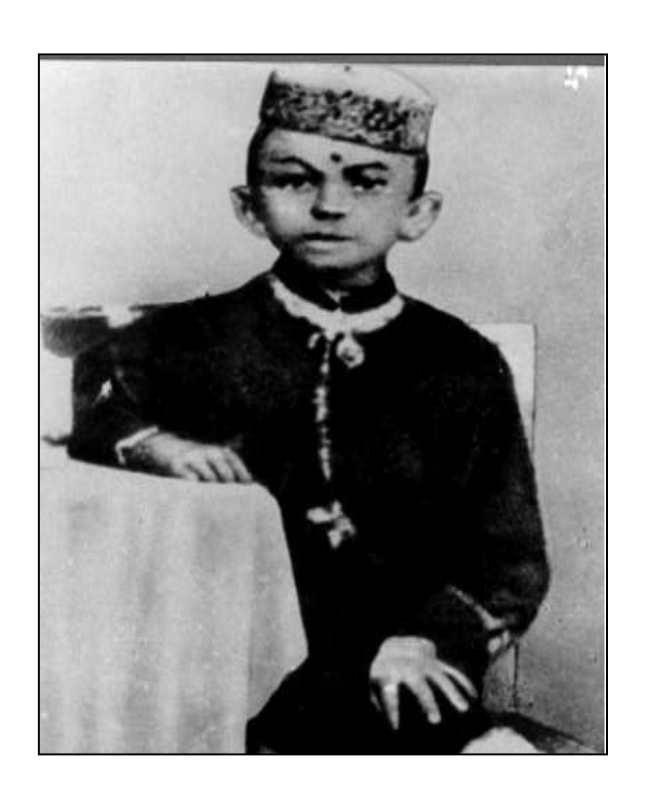
وساعدني ألا أقول الباطل لأكسب تصفيق الضعفاء..



خـــاتمة

والآن نخلص من خلال صفحات الكتاب السابقة إلى ما نستطيع أن نطلق عليه أنه أصبح تاريخية.. وإنســانية هامة لها دورها المشــهود فى تاريخ العالم المعاصــر فقد اســتغلت دولاً بعينها.. ما تعانيه شـعوب ودول أخرى من ضـعف وانقضـوا عليهم ليذيقوهم الذل.. والهوان تحت راية الاستعمار.. لكن المؤكد أن ضعف هذه الدول يكمن فقط في الخنوع والاستسلام.. ففي حين كانت بريطانيا أقوى قوة فى العالم لا تغيب عن أملاكها الشــمس اســتطاع المهاتما غاندى أن يهزمها بضــعفه.. كانت عناصــر ضــعفه هى نفســها نقاط قوته.. جســده النحيل العـارى فى معظمـه .. ونولـه الـذى يغزل بـه كســـاءه البـالى.. وكيس الملح رمز ثروة بلاده..والعصـا التى يتوكأ عليها.. والماعز الهزيلة إلى جانبه.. والاسـتعداد الدائم للجوع.. أو الإضـراب عن الطعام حتى الموت.. وهو قادر على أن يفعل كل ذلك بنفسـه.. فاسـتطاع هذا الرجل العظيم أن يهزم أقوى إمبراطورية فى العالم لأنه خاطب فيها وفى العالم المتحضـــر أرفع ما خلق الله تعالى فى الإنســـان.. وهو الضـــمير والقيم العليا من الرحمة والتعاطف والخير والشـفقة والعدل.. راهن غاندى على هذا الجانب الطيب المضـيء داخل كل إنسـان.. وكسب رهانه.. وانتصر وحصل على لبلاده على الاستقلال.

صور تمثل مراحل مختلفة من حياة غاندي



غاندي طفلاً



غاندي صبيًا في طور المراهقة



شابًا عند بداية سفره لإنجلترا للدراسة



أثناء دراسته في لندن

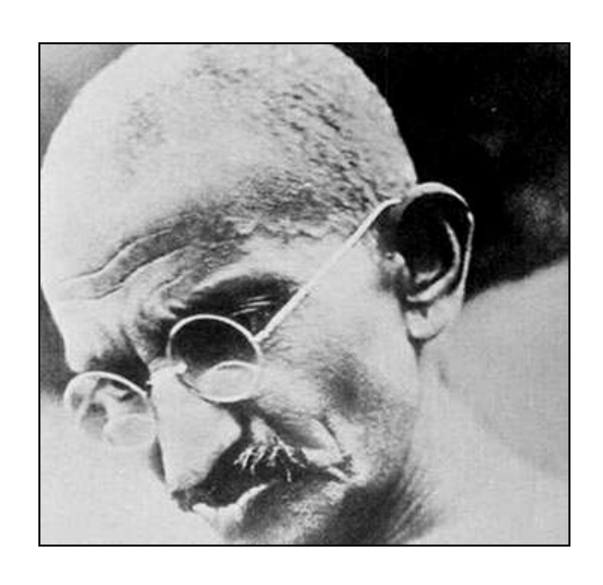


وهو محامي في جنوب أفريقيا



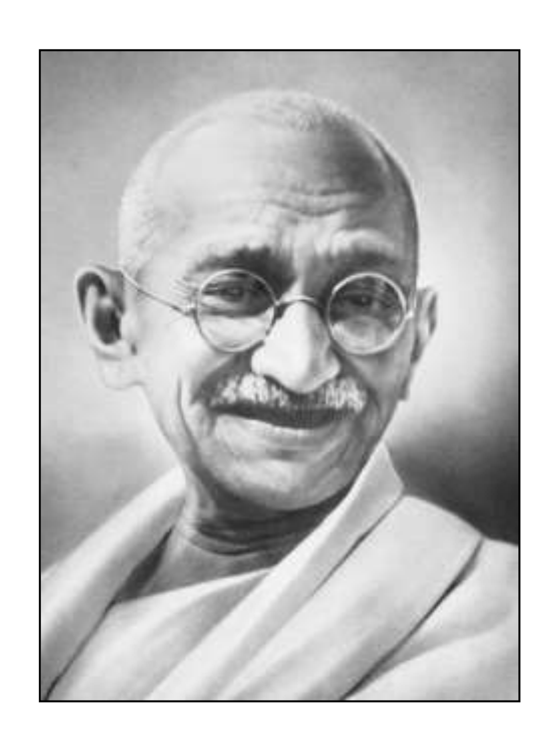


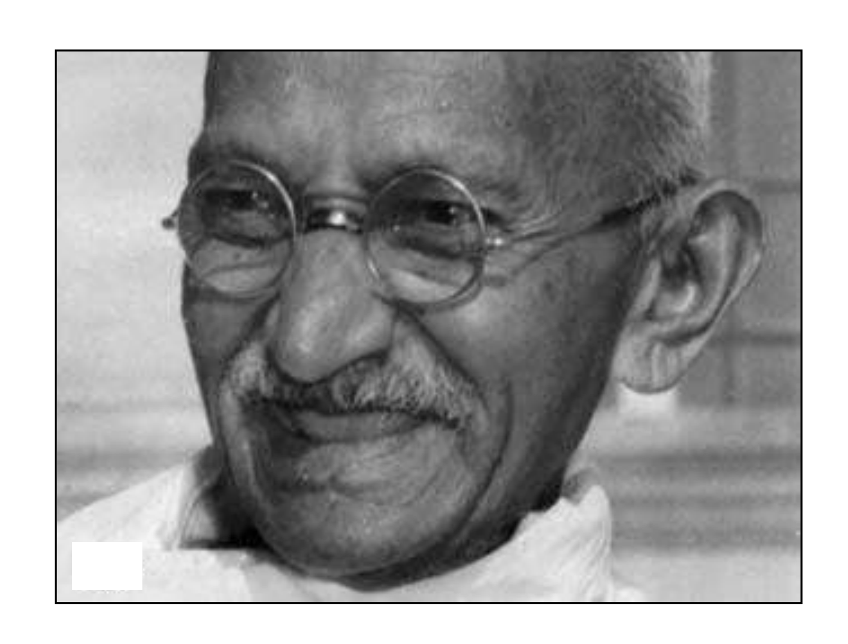
غاندي مع زوجته

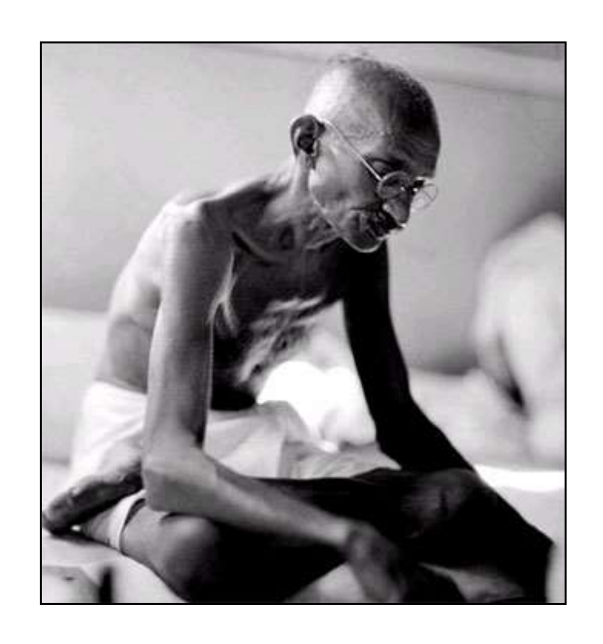




بالزي الوطني الهندي



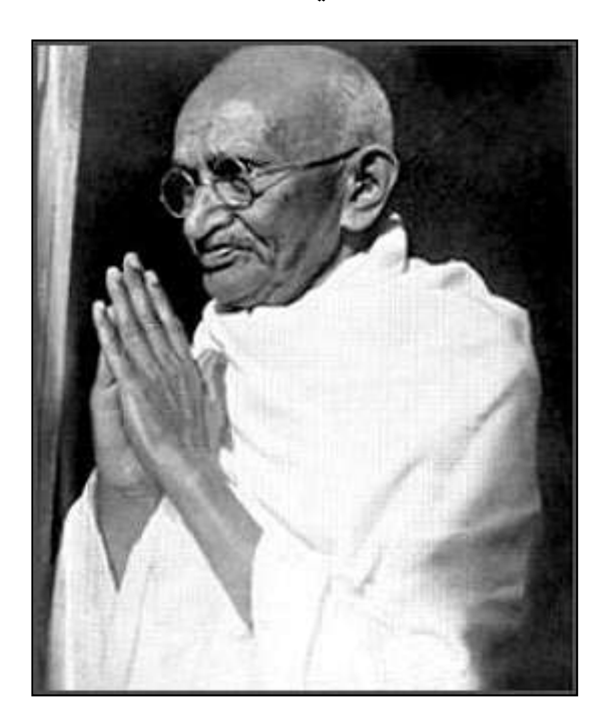






مجموعة صور مختلفة لغاندي

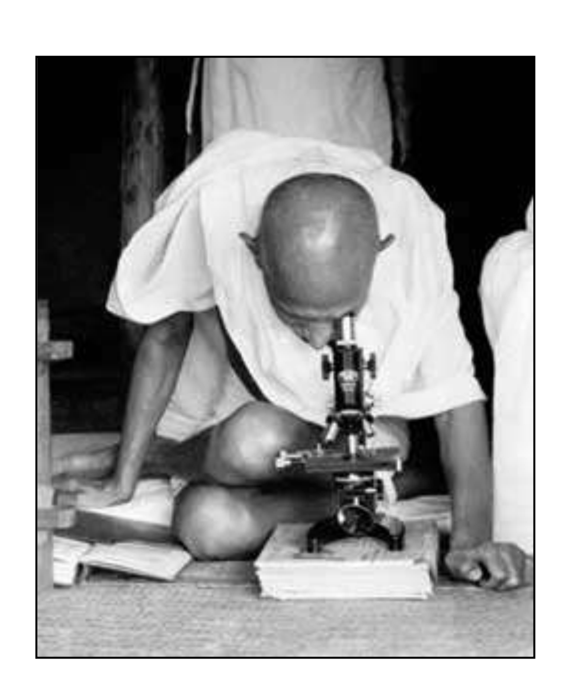
تبدو فيها أثار صيامه المستمر علي جسده النحيل



يصلي من أجل شعبه



امرأة من طائفة المنبوذين الذين كان يدافع عنهم غاندي





غاندي عند زيارته لمدينة بور سعيد

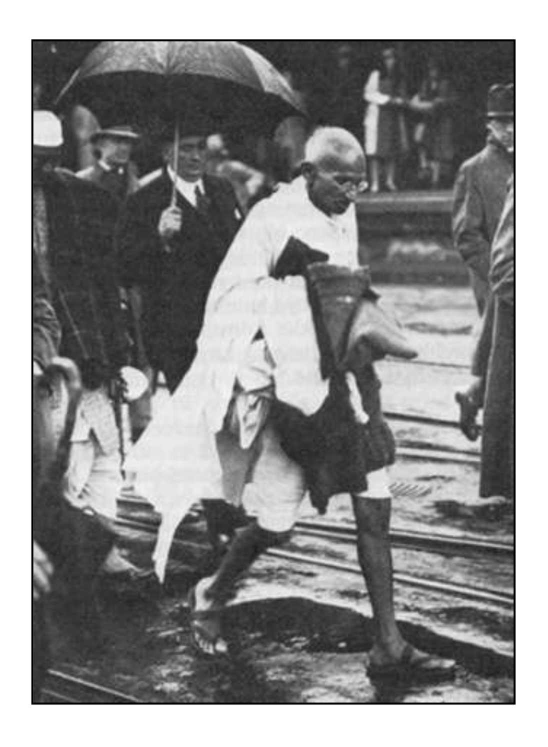


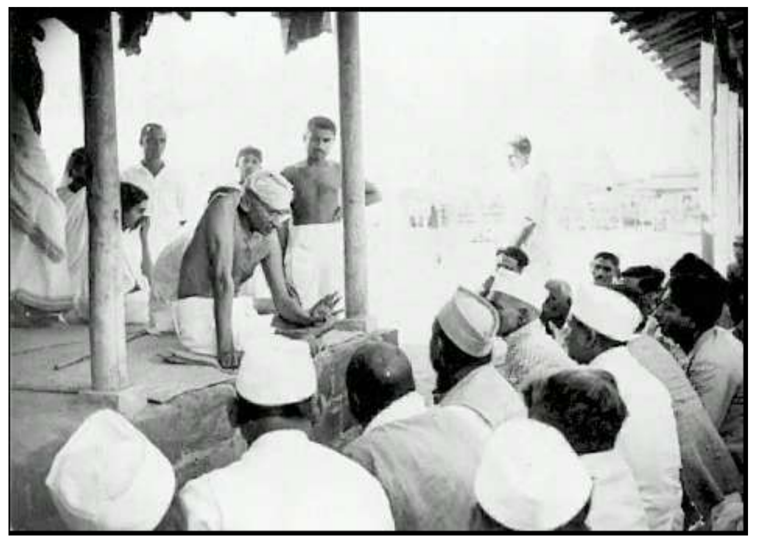


غاندي مع إحدى حفيداته



غاندي في شبابه











نصب تذكاري آخر





الفهرس

